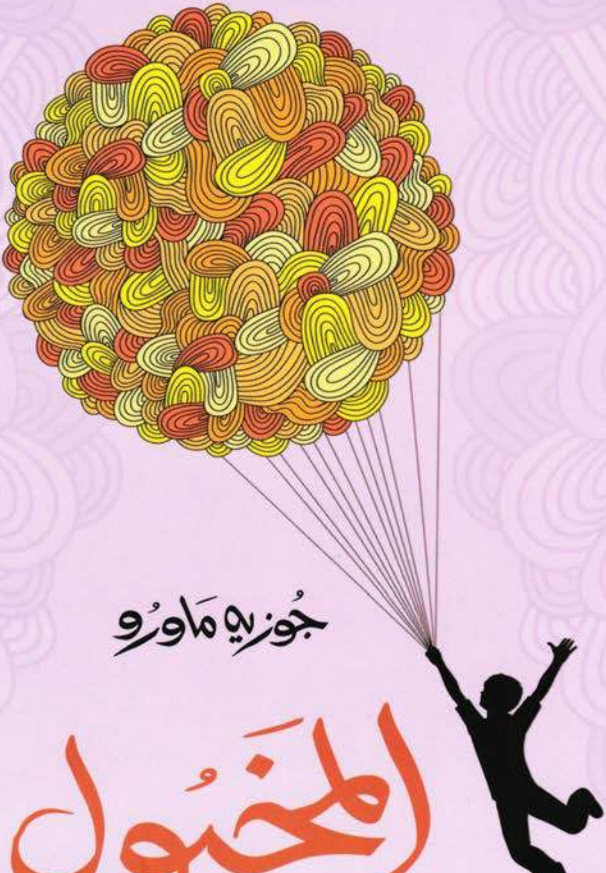


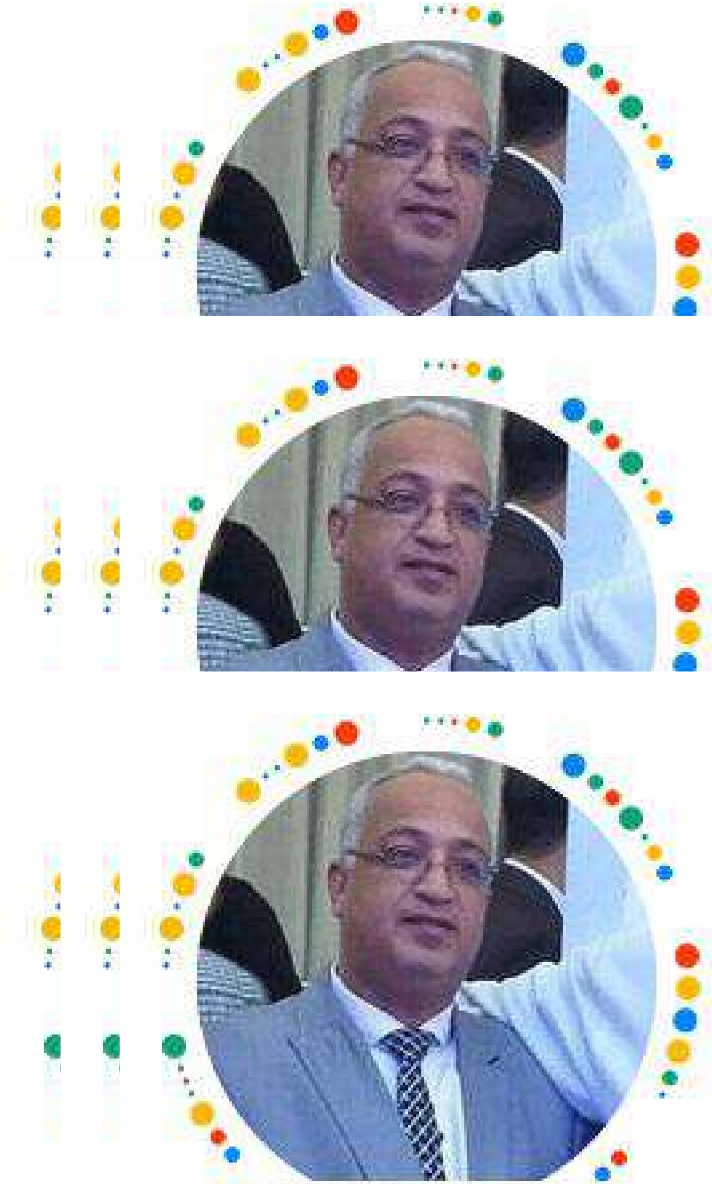
جوزيه ماورو

المخبول

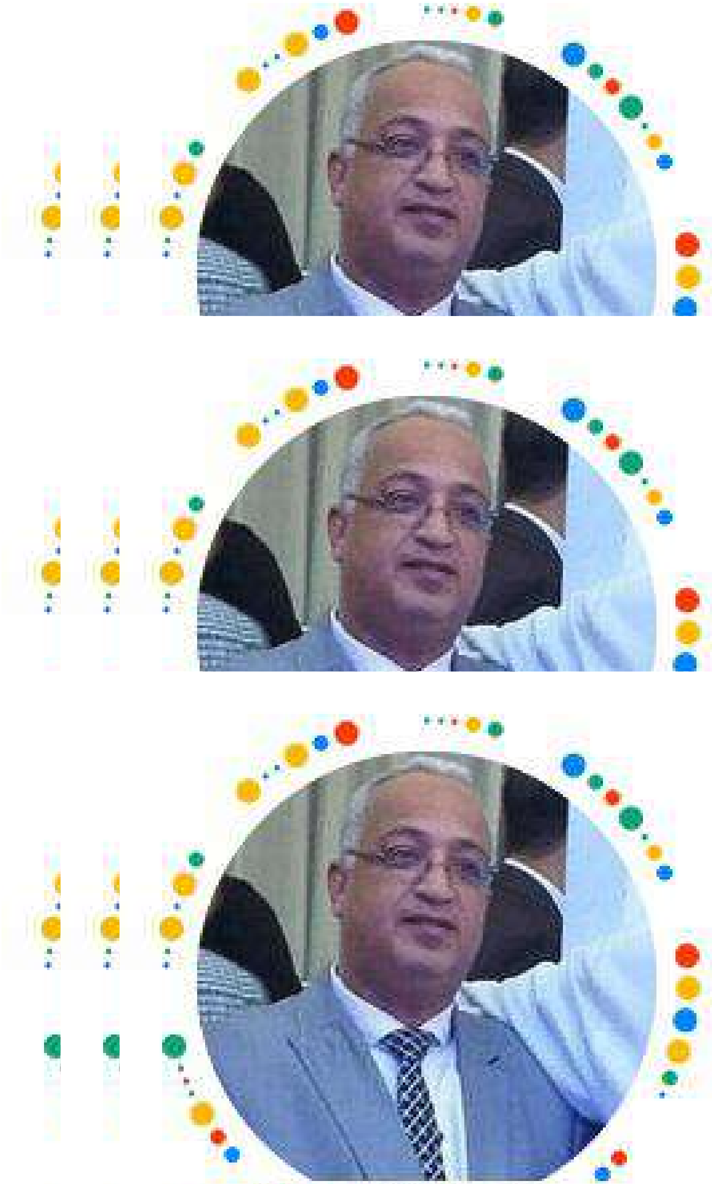
سلسلة زيزا- الجزء الثّالث

رواية

ترجمة: عبد الجليل العزبي



mohamed khatab



mohamed khatab

جُوزِيه مَاوُرُو

المَخبُول

ترجمة: عبد الجليل العربي

مسكلياني

مكتبة

t.me/soramnqraa

26 4 2023

المؤلّف: **جوزيه ماورو**

عنوان الكتاب: **المخبول**

ترجمه عن البرتغاليّة: **عبد الجليل العربي**

تحرير: **نهاد المعلاوي وشوقي العنيزي**

تصميم الغلاف: **عبد الفتّاح بوشندوقة**

خطّ الغلاف: **سمير بن قويعة**

تنضيد الكتاب: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-74-030-1**

الطبعة العربيّة الأولى: أكتوبر 2022

مسكلياني للنشر والتوزيع

الإمارات: مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر، المنطقة الحرّة، الشارقة، الإمارات
الهاتف: 561936632(971+) أو 504731882(971+)

تونس: 13 شارع محمّد الخامس، المدينة الجديدة2، تونس
الهاتف: 561936632(971+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

«قطرةُ حنانٍ واحدةٌ تكفِي لإنقاذِ مُراهَقتِك»

المؤلف

الفهرس

الفصل الأوّل: المعهدُ الثّانويّ........................ 9

الفصل الثّاني: مرّتْ بعض السّنوات............... 25

الفصل الثّالث: حبّ 45

الفصل الرّابع: الحبّ يُسبّب الخطر............... 67

الفصل الخامس: الوعد 85

الفصل السابع: المُتشرّد 105

الفصلُ الأوّل

المعهدُ الثّانويّ

«هل ستظلُّ في الحمّامِ مدَى الحياة؟!... والمعْهد! عليكَ أنْ تكونَ جاهزًا للذّهابِ إلى المعْهَد! إنّ السّاعةَ الآنَ تُقارب الثّامِنة! المعْهدُ!... المعْهدُ!... المعْهدُ! الـ ـمـ ـعـ ـهـ ـد ...».

هكذا جاءتْ صرخةُ أمّي قويّةً من الدّاخل.

ربّاهُ، كيفَ يُمْكنُ لكلمةٍ كهذهِ أنْ تملأَ، صباحًا جميلًا كهَذَا الصّباحِ الساكن في الخارج! اللّعنةُ علَى المَعْهد! ما أسخف أولئكَ الّذين يضعُونَ مؤخّراتِهم على مقعدٍ خشبيٍّ، ويقضُونَ الحياةَ كلَّها فِي الاستماعِ إلَى دُروسِ الرّياضيّات، والجغْرافيا... لا، الجغْرافيا، لا. فلطالما كُنت مأخوذًا بمعرفة أسماء الأماكن كلّها، أسماءِ الأنْهارِ وأسماءِ البُلدان! لذلك حالما يأتِي دفترُ الأعدادِ، تذهبُ التّعليقاتُ دومًا في اتّجاهٍ واحِدٍ: «الجغْرافيَا هي مادّةُ المُتسكّع، والمُتشرِّد»...

– المعْهَد!...

ومتَى سأنتهِي مِنْ هذا العذابِ كُلِّه؟ قريبًا، سأبلُغُ الرّابعةَ عشْرةَ مِنْ عُمُرِي، لكنّني سأدَرِّبُ حلْقِي علَى الأصواتِ الخشِنةِ

لأظهرَ أكبر[1]. فلكيْ أبدُوَ أكبَر سنًّا، كنتُ أقضِي وقتًا طويلاً أمامَ المرآة لتزيينِ وجْهي. هذه البثرةُ لا تعنِي شيئًا، لأنّها ستختفِي بمُرورِ الوقْتِ، أمّا أنْفِي فقدْ كانَ صلبًا. إنّهُ أنفٌ مقرفٌ يشبِهُ حبّةَ بطاطا أرجُوانِيّة. نعم، مقرفٌ! فعيناايَ صغِيرَتان، وشعْري مموّجٌ، وعنُقي سيصيرُ صلبًا قويًّا، وسيبدُو شكلُ صدْرِي رائِعًا بفضلِ السّباحةِ الّتي أمارسُها سِرًّا فِي نهرِ «بوتنجي»[2]. ولكنَّ الأنْف! ما الفائِدةُ فِي أنْ يكونَ لِي أنْف؟ كانَ لعَمّي أنفُ ببّغاء لائقٌ، ولكنّهُ كان أنفًا حقًّا. ذات مرّةٍ، قرأتُ فِي كتابِ عنوانُه *«أربعُ نساءٍ»* أنّ هُناكَ فتاةً وَضَعتْ مِشبكَ غسيلٍ علَى أنفِها لترقِيقِهِ، استعدادًا لحفلةٍ راقصةٍ، فكانتِ النّتيجةُ أسوأ، ومع ذلك قمتُ، بالشّيءِ نفسِه، وبدلًا مِنْ الأنف الشبيه بحبة البطاطا، حصَلتُ علَى أنفٍ يُشبِهُ حبّةَ الفُلفُل.

وأثناءَ تنَاوُلِ الوجباتِ، لم أنظرْ إلى أهلِ البيتِ، تفادِيًا للعَار.

- المعْهد!...

حاضِر. لبستُ الزّيَّ المدرسيَّ، وأمسكتُ بالكُتُب.

- انظرْ إلى «التّرام»! ...

---

(1) في رواية «هيّا نوقظ الشّمس» خضع زيزا لعمليّةٍ جراحيّة لاستئصالِ اللّوزتين. وبحكمِ وجودِهما عند مدخل الحنجرة، تكون وظيفةُ اللّوزتين الأولى هي الحماية ضدّ دخول الجراثيم. كان في ذلك الوقت إجراء هذه العمليّات منتشرًا. أمّا اليوم، فتُجرى فقط في حالات الالتهاب المزمن.

(2) هو النّهر الرّئيسيّ في ريو غراند دو نورت (شمال البرازيل)، وعند مصبّه تمّ تأسيس مدينة ناتال.

لا «ترام» ولا غيره، سأحتفظُ بمبلغِ الاثنيْ عشرَ ريايس[1]، وأصعدُ المنحدرَ مشيًا، وخِلالَ فترةِ الاستراحةِ أستفيدُ منَ النّقودِ في شراءِ بوظةِ جوزِ الهند. لقد حانَ الوقتُ لأصعَدَ منحدرَ «جونكايرا آيرس» طائرًا، لأنّني بهذه الطّريقةِ، عندَما أصلُ إلى ساحةِ «بالاسيو»، سألتقِي تارسيسيو ميدايرس، ثمّ نمُرُّ معًا أمَامَ منْزلِ إيدا. كم كانتْ إيدا جميلةً! لكنَّها تكبُرنا سِنًّا، وتربُطها علاقةٌ غراميّةٌ باثنيْنِ منْ أبناءِ عمُومَتي. أتذكّرُ المرّةَ الأولى الّتي اقتربتُ فِيها منْها، وأعتقدُ أنّها كانتِ الوحيدةَ، لمْ أعرفْ حينَها ما أقُول، ولكنْ، عندما غادرتُ شعُرت بأنّني أقربُ من الحمار إلى الرّجل.

حيّتنا إيدا منْ بعيدٍ، وهي تأكلُ«السابوتي»[2] الّتي نتناولها كوجبةٍ خفِيفة. في مرّاتٍ كثيرةٍ كانت إيدا تختفي مِنَ النّافذةِ، مدفُوعَةً دفْعًا قويًّا: من أمُّها. أمّا نحنُ، فنواصِلُ السّيرَ فِي الطّرِيق.

كنتُ أنتظر تارسيسيو فِي السّاحةِ مُحمَرّ الوجه. ها هُو يأتي. إنّهُ نحِيلٌ، وأسمرُ، وهادِئٌ، ولطيف. وهو ما أوقدَ نار غيرتِي منه. فضلًا عنْ أنّ بِنْطالَهُ الشبيه بفمِ الجرسِ فِي قمّةِ الأناقةِ، أمّا بِنْطالِي فلمْ يكنْ كذلكَ، بل كان ضيّقًا وقصِيرًا. ومنْ ثمّ، كلّما ذهبتُ إلى السّبّورةِ سمِعتُ تعالِيقَ الأعْداء.

(1) جمع ريال، وهي العملة الّتي كانت مستخدمة في البلاد حتّى سنة 1942.
(2) فاكهة مشهورة في الشّمال الشّرقي.

- بنطالُ «سورونيا»[1]! ذيلُ تيسٍ! محميّ!

ولِصِفَةِ المَحْمِيِّ هذه علاقةٌ بحكايةٍ في الماضي. إذ لمْ يكفَّ الرّاهبانِ الأخوانِ ماريستاس عن مدحِ ذكائِي: «هذا الصّبيّ سيصل بعيدًا»... «إنّهُ يتعلّمُ كلَّ شيءٍ بِسهولة» وبذلك صرتُ محمّيًا من كليهما...

وصلَ تارسيسيو بهدُوء.

- زاي، ماذا عن امتحانِ الرّياضيّات؟

يا إلهي، الرّياضيّات! إنّها نقطةُ ضَعْفِي، وسببُ عقوباتِي، وتفويتِ السّينما، وإقصائِي مِنْ مباراةِ كرةِ القدمِ الّتي أشعرُ أثناءَها بألمٍ شديدٍ، ومع ذلك، أحبُّ اللّعب. أمّا السّباحةُ. فقد كنتُ بارعًا فيها.

- استيقظْ يا زاي! رياضيّات.

- إلّا إذا قُمنا بالشّيء نفسِه كما فعَلْنَا فِي الاخْتِبارِ الأخِير.

- هل يُمكنكَ الحُصُولُ على العَلامَة؟

- سيكونُ ذلك صعبًا، وسيغضبُ الرّاهبُ فيليسيانو.

- وأنتَ هل تساعدُني؟

- بما أنّه يعرِفُ أنّني أهرُبُ مِنْ الدّروسِ، وأذهبُ إلى السِّباحةِ،

(1) كانت قَصَّة بناطيل ملتصقة بالفخذين، تتّسع تحت الركبتين، وتنتهي بثَنْيَةٍ مفتوحة جيّدًا في شكل جرس.

وعائلتِي لا تُرِيدُ ذلك، أعِدُك بأنّنِي لنْ أهْرَبَ ثانِيةً، ومن ثمّ سيُغيِّرُ الرّاهبُ العلامةَ فِي دفترِ الأعْداد.

- وهل ستفِي بالوعْد؟

- أنتَ غبيٌّ، أليْس كذلك؟ أفعلُ هذا حتّى أُجْرِيَ الاختِبارَ، وبعد ذلكَ أعودُ إلى السِّباحَة.

- أجلْ، ولكنْ عندَما نُجْرِي اختبارًا آخر، سيخصِمُ منهُ العلامَة.

- سأنْجِزُ اختبارَ المادّةِ الأخرى بأيِّ شكلٍ مِنَ الأشْكالِ، لأنّها الامتِحانُ الجُزئيُّ الثّالث. وبمعدّلِ الموادِّ الثّلاث المتوسِّطِ، سيتسنّى لي النّجاحُ، رَغمَ رُسُوبِي فِي المَادّةِ الرّابِعة.

- زاي، كيفَ يمكنُ أن نغيّرَ العلاماتِ فِي دفترِ الأعدادِ، وتمرَّ العمَليّةُ بسلامٍ؟

- لقد رأيتُ ذلك. هناك اثنتا عشْرَة علامةً، وأمام كلّ واحدةٍ منها يُوضع رقم المسألة التي درسناها. ثمّ يأخذُ الرّاهبُ فيليسيانو دفترَ الأعدادِ، ويسجّلُ فيه العلاماتِ النهائيّة.

- وماذا لو اكتشَفُوا الأمرَ يومًا مّا؟

- لا. أبدًا. لنْ يَكْتشِفَ أحدٌ أنّه هو الفاعلُ، فهو يكتب الأرقام بخطٍّ آخر مُختلفٍ عن الخطّ الأصلي. هل تعتقدُ أنّهُ أحمَق؟

- ولِمَاذا يُحبّكَ كثيرًا؟

- لأنّه يعرِفُني منذُ كنتُ صغِيرًا.

- ولكنّه يعرِفُني أيضًا منذُ كنتُ صغِيرًا.

- إذن، لأنّك تفتقرُ إلى الحدّ الأدنى من الوسامة. كان يُعاملني دومًا كأحدِ أبنائِهِ، ولا أحد يُحِبُّ أنْ يكونَ لديهِ طفلٌ قبِيح.

- واو، كمْ أنتَ مغرُور!

- ألا ترى هيبتِي مع النِّساء؟

- نساءٌ رائِعات!

- لسنَ كذلك، ولكنهنّ سيصِرْنَ، بالطّبع، يا لهذا التّعليق! هيّا بنا نجلسْ على مقعدِ الحدِيقة؟

- لنذهبْ، ولكنْ،... ماذا عنِ الوقت؟

- مازالَ لدْينا عشرُ دقائِق. سنعودُ جريًا. فحتّى وإنْ كانَ درسَ الرّاهبِ أماديو؛ فإنّه لنْ يغضبَ لو وصلنا متأخِّرَيْن.

مشيْنا، ندوسُ بجزماتِنا الصّغيرةِ أوراقَ التّين البنجامينيّ[1]! طق! طق! ثمّ جلسْنا.

نظرنَا إلى الأعلامِ المُرفرِفةِ فوقَ بُرجِ السّاحةِ الرّئيسِيّة. كانتْ عيناي تحلُمان بالأعْلام. سأذهبُ، ذاتَ يومٍ، إلى فيلقٍ أجنبيٍّ، وأنضمُّ إليه. فالأعلامُ تعنِي لِي الحرّيّةَ والحيَاة.

---

(1) شجرة معروفة بهذا الاسم، وتسمّى أيضًا تينة، ويعود أصلها إلى آسيا.

تذكّرتُ صَداقةً حميمَةً جمعتْ بيْني وبيْنَ بعْضِ الكشّافةِ الّذِين بقَوْا فِي البُرجِ لمُساعَدةِ السّفُنِ فِي المرْسَى، فعدتُ إلى التّفكيرِ فِي الفيلقِ الأجنبيّ[1]، واستعدتُ فيلم «بو جسيت» (Beau Geste) مشهدًا مشْهدًا.

- الأمرُ سهلٌ، يا تارسيسيو. نرتكبُ جريمةً، ونهربُ إلى هُناك. فلا أحدَ في الفيلقِ الأجنبيِّ يهتمّ بماضِينا.

- مَنْ مِنَ الّذين نعرفُهم الآن بالذّاتِ تَقترِحُ أنْ نَقتُلَ، ثمّ نَتطوّعُ في التّجنيد؟ قلْ لي؟

- المدِيرُ الرّاهِب. لا أحِبُّ الرّاهبَ جوزيه. لا يكفُّ ذلك الشّيطانُ عنِ الصُّراخِ مُدّعيًا أنّني لا أفهمُ شيئًا منَ الرّياضيّات.

- وكيف ستقتُلُه؟

- بذلك السُّمِّ الأزرقِ الّذي نستعمِلهُ فِي درْسِ الكِيمْياء. سأُذيبُه في جعّتِه.

- أجلْ، ولكنّ الخزائنَ جميعها مغلقةٌ في قاعةِ الكِيمْياء.

- يُمكِنُني أيضًا أن أدفعَ ذلك الفظّ منْ برجِ الكنيسةِ، هُناك، بالقربِ منْ نافذةِ الدّيكِ، فوْقَ نافذةِ الأجْراسِ الكبيرة.

---

(1) فرع خدمة عسكريّة أنشأته فرنسا في القرن التّاسع عشر ليشارك في مهامّها العسكريّة في مستعمراتها، وكان الغرض من تلك الفرقة فتح باب الانضمام إليها لجنود غير فرنسيّين. واشتهرت بمشاركتها في مناطق بها نزاعات محتدمة، ولذلك لم تدقّق في سيرة كلّ من ينضمّ إليها.

- وكيف يستطيعُ رجلٌ عجوزٌ سمينٌ وكبيرُ البطنِ صعودَ درجاتِ البُرج؟ ألمْ ترَ أنّ درجاتِ البرجِ مخرّبة؟ هُناك أجزاءٌ يجبُ أن نتسلّقَها على طُولِ الحافّةِ؛ ثمّ يبقَى هُناك ستُّ درجاتٍ مُتتالية؟

- أنتَ تُخرّبُ كلّ شيء.

- مهلًا، فأنتَ منْ تحدّثَ عنِ القتل! ...

- هذا مؤسِف. لو ماتَ الرّاهبُ جوزيه لأخذنا ثلاثةَ أيّامٍ عُطلة. ولكنّنا لنْ ننالَ هذا الحظّ.

- سننتَهِي مِنَ الدُّرُوسِ بعْدَ سنتينِ، ولمّا يزَلْ هَذا العجُوزُ الملعُونُ صُلبًا، وبصِحّةٍ جيّدَة ...

ران الصّمتُ علينا مرّةً أخْرى، فجذبتْني رفرفةُ الأعلامِ: «الجغْرافيا مادّةُ المُتشرّدِ والمُتسكّع».

- زاي، أودُّ إخبارَكَ بشيءٍ، ولكنْ، لنْ أفعلَ ذلك إلّا يومَ الأحدِ.

- لماذا الأحد؟ احكِ لي ونحْنُ نمْشِي.

نهضْنا وبدَأنا المشْي.

- الأحدُ مازالَ بعِيدًا، تفصِلُنا عنهُ ثلاثةُ أيّام. لكنْ، إذا أخبَرْتني الآنَ سأقولُ لكَ شيئًا مُذهلًا.

- حسنًا إذن. ماذا ستفعلُ بعْدَ أنْ نكْمِلَ الدِّراسَة، هل فكّرت

في ذلك؟

قمْتُ بإيماءَةِ رفْضٍ لاإراديّة. فِي الحَقِيقةِ، دَعانِي أبِي مُنْذُ أيّامٍ إلى عيادَتِه، فاستَجبْتُ. لقَدْ أرادَ علَى الأقلِّ أنْ يعْرفَ أشياءَ مِنْ رجُلٍ إلى رجُلٍ، لكنّنِي شَعُرتُ بالخَجلِ الشّدِيدِ مِنَ التّحدُّثِ عن ذلكِ معَ أبي... وأُصِبتُ بالإحباطِ، فأنا أكبُر شيئًا فشيئًا، وللأسفِ، سيأتِي اليومُ الّذي سأكونُ فِيه أبًا مثلما حصلَ مع كلّ الآباءِ، وعليَّ أنْ أتكلَّمَ معَ أبنائِي بتلكَ الطَّرِيقةِ المُحرِجَة. طرحَ أبِي عليَّ السّؤالَ نفسَه الّذِي وجّههُ إليَّ تارسيسيو: «ماذا ستفعلُ بعْدَ إنهاءِ الثّانويّة؟». يا إلهِي! فأنا لمْ أفكّرْ فِي ذلك البتّةَ، كيف لا، ويومُ الأحدِ ما يزالُ بعِيدًا جدًّا، تفصِلنَا عنهُ ثلاثة أيّام!... لطالما تحدّثَ أبِي معِي، ودفعنِي إلى التّفكيرِ في تلكَ المسائلِ، ومحاولةِ حلّها تدريجيًّا من خِلالِ دراسةِ إمكانيّاتِي، وحدودِ تطلّعاتي. ولكنّني، في الحقيقةِ لا أفكّرُ إلّا في السّباحةِ، والتّشمّسِ، وأنْ أكونَ حُرًّا. وبالطبعِ، اعتَقدَ أبِي أنّني سأستمرُّ في العملِ فِي عيادتِهِ كطبِيب. ولكنْ، طبِيب؟ أنا؟ حسنًا. أقضِّي حياتِي أهتمّ بأمراضِ الآخرين، ولَأمِ الجُرُوحِ، وشمِّ الرّوائحِ النّتِنَة!... لقدْ شكَّ الإخوةُ القساوسةُ ماريستاس فِي مُيولاتِي الدّينيّةِ أيضًا، وكذِبوا فِي ذلك كذِبًا، لأنّ كلَّ ما فِي الأمرِ هو أنّ القدّاسَ أصبحَ شيئًا فشيئًا مملًّا جِدًّا في نظري. إنّهُ مُمِلٌّ، ومكرّرٌ، إذ يتمّ دائمًا بالطّريقةِ نفسِها، مجرّدًا من القيمة مثلَ بكرةِ قصبِ السّكّرِ، لا معنى له ولا طعم... أنا لا أريدُ أنْ أصيرَ شيئًا. «الجغرافيا هيَ مادّةُ المُتسكّعِ والمُتشرّد». وفجأةً، هجَمَتْ عليّ

حالةٌ مِنَ الحُزنِ لأنَّ فشلًا مّا ينتظرُني قرِيبًا. فبينما كان جميعُ معارِفي يفكّرونَ في المستقبلِ، ويرسُمون مشارِيعَهم وخططَهم، ظللتُ أنا لا أفكّرُ فِي أيِّ شيْء ...

- هل فكّرتَ؟

- فِيم؟

- في مستقبلِك؟

- بدأتُ الآن بالذّاتِ أفكّرُ في ذلكَ، وأنت؟

- أنا أعرِفُك. أنتَ لمْ تفكّر فِي أيِّ شيءٍ، ولا تريدُ التّفكير. وبما أنّنا مثلَ الإخوةِ، يمكنكَ الذّهابُ معِي...

- تريدُ أخذي معكَ وأنت لمْ تُطلعْنِي على وجهتِك.

- غوّاصَة.

- لقد اندهشتُ حقًّا.

نظرتُ إلى تارسيسيو بهدوءٍ كبيرٍ ولُطف.

- أجلْ هذِه هيَ الحقيقة. سأعملُ فِي غوّاصَة. هذا حلمِي.

- ولا تشعرُ بالخوف؟ منذُ متَى بدأتَ التّفكيرَ فِي هَذا؟ ولِمَ لمْ تُخبِرْنِي منْ قبل؟ آه! لهذا أنتَ غامضٌ منذُ أيّام؟

- ألنْ تذهبَ معِي؟ لا بدّ أنّ الأمرَ رائعٌ: النّزولُ إلى أعماقِ البحْرِ، إلى عالمٍ مختَلف.

- أجلْ، ألمْ تشاهدْ فيلم «ريتشارد ديكس»[1]؟ لقد بقيَ ذلكَ الحيوانُ هُناكَ فِي الأعْماق، وعِلاوةً على ذلك عانى الجميعُ منْ ضيقِ التنفّس. أنا لنْ أذهبَ إلى هُناك.

- ولكنْ، ألا تُحِبّ السّباحَة؟

- السّباحةُ شيءٌ، والموتُ اختناقًا شيءٌ آخر. ولكنْ، أخبِرني! كيفَ يُمكننا الدّخولُ إلى غوّاصَة؟

- فِي البَحرِيّةِ الحرْبيّة.

- ألدى بحريّتنا غوّاصة؟

- هذِه هي النّقطةُ الغامِضَة، فلا أحدَ يعْرف. منْ يعرفُ هو كاسكودينيو، هل نسألُه؟

- ولكنْ، إذا سألتَهُ سيَكشِفُ سِرَّك.

وأثقَلَنا الحُزنُ بسببِ مشاكِلِنا الكبيرةِ تلك. فقد كانَ صعْبًا التّفكيرُ فِي قتلِ الرّاهبِ، وفِي مستقبلِ تارسيسيو الّذِي يريدُ أن يعملَ في غوّاصةٍ لا وجودَ لها فِي البرازيل...

أشارتْ ساعةُ السّاحةِ الرّئيسِيّةِ إلى الثّامنةِ والنّصف.

- هيّا بنَا يا زاي، فإذا اكتشفُوا أنّكَ تأخّرتَ فِي العودةِ إلى المنزلِ،

---

(1) ممثّل سينما أمريكيّ (1893 - 1949) مثّل في السّينما الصّامتة ثمّ أدرك مرحلة السينما النّاطقة ومثّل فيها.

سيحرِمُونَكَ مِنَ الذّهابِ إلى الشّاطئِ يومَ الأحَد.

حثثْنا الخُطى.

- وأنت، ماذا أردتَ أنْ تُخبِرَني؟

- لقد مزّقتْ غَرِيزَةُ الزّعرنةِ رُوحِي.

- لقد أصبحتُ مثلك يا تارسيسيو. بدأتُ أصيرُ رجُلًا، وبدأَ الشّعرُ يظهرُ هُنَا، وأخذَ الزّغبُ الأشقرُ الصّغيرُ يتكاثَف.

- الأمرُ يحدثُ هكذا، تمامًا، وبصورةٍ مفاجأة. ومنْ دونِ أنْ ننتبهَ، تصيرُ عنْدَنا غابَة.

- هل انتبهتَ إلى هذا التّغيّرِ عنْدما حدَث؟

- لا.

- ولا أنا. هلْ هذا يعنِي أنّهُ بإمْكانِنا قرِيبًا أنْ نُنجِبَ أطفالًا؟

- علينَا الذّهابُ، يا زاي.

أسرعْنا الخطْو.

- لكنْ، هنالكَ شيءٌ آخر

- ماذا؟

- صعِدتِ المُعينةُ المنزليّةُ على الكرسيِّ لتنظيفِ مِصباحِ المطْبخ، فرأيتُ الفخذيْنِ الغلِيظيْن! ...

- دعْنا نذهبُ إلى الفصلِ، يا زاي. عليْنا أنْ نمرَّ عبْرَ الزُّقاقِ الخلفيِّ، حيث يُوجد محلُّ أرتور.

- لا يمكنُ أنْ نمرَّ منْ هُناك، يا تارسيسيو.

- هل تخافُ مِنَ الفتَاة؟

- إنّها مذهِلة! لقد وقفتُ يومًا أمامَ بابِ منزلِها وصرّحتُ: «لا يجبُ أنْ تظهرِي، أيّتها الشَّقيَّة! سأخبرُ أمَّكِ، أيّتها المتطفّلة! توقّفِي عنِ استفزازِي عندَما أمُرّ!».

- وهي؟

- ظلّتْ واقِفةً بالطّرِيقةِ نفْسِها عنْدَ النّافذةِ، واضِعةً يديْها على ذقنِها، وقالتْ لِي: «أنتَ وسِيم!». وفِي كلِّ مرّةٍ أمرُّ فيها مِنْ هُناكَ، أجدُها تنتظرُنِي، وتقولُ لي بعينيْها باسِمةً: «أنتَ وسِيم». يومًا مّا سأتحدّثُ مع والدِها.

- وماذا ستقولُ له؟

- انظرْ يا دكتور، إنّ ابنتكَ لمْ تتجاوزِ العاشرةَ، وتقدِّمُ نفسَها إلى الرِّجال!

- أنتَ رجلٌ عظِيم! فلا يجوزُ لها أنْ تتصرّفَ هَكذا. وما اسمُها؟

اجتاحنِي فضولٌ كبيرٌ، وحرّكتْني شقَاوةُ الفتَى. فأنا لمْ أسألْها عنْ اسمِها قَطُّ.

دخلنَا الزُّقَاقَ مُسرِعيْن، فوجَدْناها هُناكَ، غيْرَ أنّنا هذِهِ المرَّةَ لمْ نغيّرِ الرّصِيف. ذهبتُ رأسًا إلى النّافذةِ، ونظرتُ إلى شعْرِ الفتاةِ الفوضَوِيّ. حدّقتُ إلى غمّازتيْ وجهِها، وإلى ابتسامةٍ تائهةٍ في عينيْها السّوداويْن. لكنّها في هذهِ المرّةِ لمْ تقلْ لِي، بسببِ حضُورِ تارسيسيو، إنّني وسِيم. توقّفتُ، ونظرتُ إلى عينيْها، ولم أستطِعْ أنْ أنبسَ ببنتِ شفة ...

الفصل الثّاني

مرّتْ بعض السنوات

- زاي، يا لَها منْ حياةٍ مجنونةٍ تعيشُها!

خلعتُ حِذائِي بسرعة.

- تظاهرْ بأنّنا مازِلنا صغارًا، يا تارسيسيو.

قفزتُ، وأمسكتُ بأوّلِ غصنٍ من أغصانِ شجرةِ المانغو القدِيمة.

- إنّها شجرةٌ عموميّة، كيفَ تتسلّقها؟

غرقتُ في قهقَهات.

- طفولة! الطّفولةُ هيَ أكثرُ الأشياءِ الّتي رأيتُها فِي حياتِي بؤسًا وجبْنًا.

وضعتُ جسمِي فوْقَ أحدِ الأشْرطةِ، وبدأتُ أتنقّلُ منْ غصنٍ إلى آخر، حتّى تشجَّع تارسيسيو ورافقَنِي.

- أين غصنُنا، يا تارسيسيو؟

- هو ذاك.

- هل هذا ممكِن؟ يبدُو مُنكمِشًا.

- بلْ عيونُنا كبُرت.

دخلتُ بيْنَ الأغصانِ، وأطلتُ النّظرَ إلى أوراقِ شجرةِ المانغو الباهِتَة. قريبًا جدًّا، لنْ تصبحَ قادِرةً على إنتاجِ الثِّمار. لقد شاختْ شجَرةُ المانغو العمُوميّةُ فِي غُضونِ سنواتٍ قليلةٍ. هكذا هي الحياةُ، حالما تُصبح بلا قيمةٍ، فإنّ أيَّ فأسٍ طائشةٍ ستُسقِطُها أرْضًا. فهي ليستْ سِوى شجرةٍ غير مُثمِرةٍ، توسِّخُ الحاكورةَ أكثرَ منْ أيّةِ شجرةٍ أخرى. يا لهَا منْ حمْقاء! مَنْ أمرَها بأنْ تشِيخ. يا لهَا منْ مِسْكينَة. منَ السيّءِ أنْ نفكّرَ هَكذا، لكنْ، ماذا لو صِرْنا نحنُ عجُوزيْن؟

يبدُو أنَّ تارسيسيو المستاءَ سيُوبِّخنِي على أفكارِي هذه.

- زاي، عمُركَ تسعَ عشْرةَ سنَة. عليكَ أنْ تكونَ متّزنًا.

- لا أريدُ أنْ أكونَ شيئًا. لديّ قلبُ متشرِّدٍ، ومنْ يُحبّني عليهِ أنْ يتقبّلني كمَا أنا.

- «الجغرافيا مادّةُ المُتشرّدِ والمُتسكِّع».

- واضِح. لم يَعُد مَن قالَ ذلكَ موجودًا بيننا.

ضحكتُ بسعادةٍ، وأنا أشاهدُ وجهَ تارسيسيو القمْحيّ. الآن، صارَ لديْهِ شارِبٌ، شارِبٌ أسودُ ناعِم.

- إذا تركتُ شارِبِي ينمُو، فإنّه سيصيرُ شيئًا أشقرَ فظيعًا، وسأحتاجُ إلى صبْغِه.

- زايِ، لنتكلّمِ الآنَ بجِدّيّة. هل تخلّيتَ فعْلًا عنِ الدِّراسَة؟

- طبعًا.

- وماذا تنوِي أنْ تفعَل؟

- مازلتُ أفكّرُ في الانضمامِ إلى الفيلقِ الأجنبِيّ.

- ولكنْ، عليكَ الآن أن تفكّرَ فِي ضَحيَّةٍ أخْرى: لقد ماتَ الرّاهبُ جوزيه.

خيّم شعورٌ بالحزنِ على تعابيرِ وجهِه.

- ولمْ نتمتّعْ بالإجازَة.

- لا تقُلْ هذا، لقدْ كانَ العجُوزُ رجُلًا طيّبًا.

- لمْ يكنْ طيّبًا قطُّ. كانَ عجوزًا ابنَ عاهرةٍ يصْرخُ فينا بجبنٍ، ويبُثُّ رُعبًا فِي طفولتِنا. هل تذكرُ كيف أطلقَ النّارَ، فِي الجُمُعةِ العظيمةِ، على كلبِ المزرعةِ، ليتأكّدَ مِنْ دقّتِهِ فِي التّصويب؟ ثمّ جاءَ ذلكَ الحيوانُ سعِيدًا بفعلتِهِ ليُقيمَ احتِفالًا؟ فالرّصاصةُ أصابتِ الهدفَ بدقّةٍ، في وسطِ الجبْهة... طيّب! ...

- لا تتحدّثْ هكذا عنِ المَوتى.

- وهنالكَ شيءٌ آخر لا أفهمُه. لماذا يصبحُ الشّخصُ الّذِي يموتُ قدِّيسًا.

- لا أريدُ الجدالَ، ولا التّخاصُم.

- إذن، أعْطِنِي سِيجارَة.

أشعلتُها، ونفخْتُ الحُرِّيّةَ في الفضَاء.

- أنتَ حيوانٌ. لقد أفْسَدْتَ كلَّ شيْء، بعدَ أنْ حاولتُ العودةَ إلى الطّفولةِ. والآن، لا نستطيعُ الحديثَ عنْ غوّاصاتِك.

- تحوّلتْ غوّاصَتِي إلى درسٍ صغيرٍ فِي الحقوقِ سيتمُّ تعطيلُهُ مدّةَ سنتيْنِ بسببِ قلّةِ المَال. وفي الوقتِ الحاليِّ، لا بدَّ لي منَ العملِ في الصّرفِ الصّحّيِّ لجمعِ بعضِ القطعِ النّقديّةِ من أجلِ استئنافِ دراستِي في مدينةِ «فورتاليزا»، لأنَّ تكاليفَ الدّراسةِ أرخصُ هُناك.

- هل عملكَ جيّد؟ هل تتذكّرُ تلكَ الشّقراءَ المؤكسجةَ هُناك في حيِّ «لاغوا سيكا»؟ كانتْ عشيقَة... لقد نسيتُ اسمَها. هل تعرفُ أنّه يجبُ عليّ الإقلاعُ عنِ التّدخِين.

- حدّثني عن شيءٍ واحدٍ فقطْ، وليس عنْ مواضيعَ عديدةٍ في الوقتِ نفسِه!

- واو! لقد كنتُ أغارُ كثيرًا مِنْ بنطالِكَ فمِ الجرَس. أمّا الآنَ، فأنا آسفُ لأنّني لمْ أتحلَّ بهدوئكَ ومَنْطِقك. لقد كان ذلكَ صعبًا عليّ. ولِعلْمِكَ، سأتوقّفُ عنِ التّدخينِ، لأنّني سأستأنفُ تدْريباتِي فِي السِّباحة.

نعمْ، كنتُ جيّدًا فِي السّباحة. وكان جسمِي ينزلقُ، وينزلقُ، فينْتابُنِي شعورٌ بالانتعاشِ، كما لو أنَّ كلَّ قطرةِ ماءٍ صديقٌ عزِيز.

- أعتقدُ أنّ لديَّ دمًا هنديًّا أحمرَ[1] بالفِعْل. كمِ السّاعةُ، يا تارسيسيو؟

- الثّالثة والرّبع. لماذا؟

- لا شيء. فكّرتُ في المرورِ بمعهدِ ماريستا.

- لنذهب؟

- أخشَى أنْ أرى الرّاهبَ فيليسيانو، والرّاهبَ أمبروزيو.

- لنذهب؟

- نعم. هيّا بنا.

نزلنا منْ أعلَى شجرةِ المانغو علَى عَجَل.

- إنّ القليلَ منْ سوءِ الحظِّ يسبّبُ المَرَض.

- ألا تريدُ غسلَ قدميكَ لتنتعلَ الحِذاء؟

- دعنا نذهبُ قبْلَ أنْ أتراجَع. فالقليلُ مِنَ التُّرابِ العالِقِ بالقدَمِ يذكِّرُنا بأنّنا سنصِيرُ يومًا رمَادًا.

شمَمْتُ رائِحةَ يدَيّ.

- طيّبةٌ هيَ رائِحةُ القِشْرةِ الّتي بقِيتْ عالِقةً بيدَيّ!

- لم أنتبهْ لذلك.

(1) تعودُ أصولُ أمّ زيزا في *«شجرَتي شجرةُ البرتقالِ الرّائعة»* إلى الهنود الحمر

في اللّيلِ، جلستُ على أحدِ مقاعدِ السّاحةِ، وتزاحمتِ الأفكارُ في ذهني. كمْ رهيبٌ أنْ تفكّرَ في مسائلَ كثيرةٍ في الوقتِ نفسِه، وألّا تجدَ الوقتَ الكافي لتضعَ كلَّ شيءٍ في مكانِه.

بُلّطتِ السّاحةُ الكبيرةُ بفسيفساءَ، ووُضِعتْ فيها بعضُ النّافوراتِ الصّغيرةِ بشكلٍ تافهٍ، ونُثرتْ بعضُ مقاعدَ إسمنتيةٍ بيضاءَ مهجورةٍ بسببِ الحلولِ السّريعِ للسّاعةِ السّابعةِ مَساء. يا إلهي، كمْ هِيَ فظيعةٌ مدِينةُ «ناتال»، لا عمل فيها ولا أمل، إنّها قُنْبُلَةٌ مؤقتّة، لا مدينة! اقتصرَ دخْلِي الماليُّ البسيطُ على مصروفٍ كنتُ أستلمُهُ منْ أبِي، وكنت أعملُ فِي السّوقِ النَّهارَ كلَّه، وتدفعُ أمّي لِي ما يجبُ دفعُهُ مثْلَ أيِّ عاملٍ آخر تمّ انتدابهُ لتلك الوظِيفة. لطالما فكّرتُ في مُستقبَلٍ مُظلمٍ قد يتهرّأُ فيهِ حِذائي، أو تبْلَى أثناءهُ ملابِسي، وأرّقتني أيضًا مسألةُ التّخلّي عنْ دراسةِ الطّبِّ لأركضَ خلفَ حلمٍ، ومللتُ تمامًا دفعَ تكاليفَ بسيطةٍ لقاءَ عملِي كناظرٍ فِي المعْهدِ، أوْ دُروسٍ خُصوصيّةٍ أعطيتُها، أو القيام بدوراتِ محوِ الأمّيّةِ في مراكزِ تأهيلِ العُمّال.

أمّا مدينة «ريسيف» فكانت حارّةً، وكريهةَ الرّائحةِ عندَما تُمطر. وليْس ذاك فحسب، فهُناك، فِي نُزلِ شارعِ «برايا»، أمامَ المحلّاتِ التّجاريّةِ، إلى جانبِ سوقِ «ساو جوزيه»، يمتزجُ كلُّ شيءٍ لإخراجِ رائحةِ البصلِ الفاسدِ، والملحِ، وهواءِ البحرِ، والعفَن. وفي اللّيلِ، مِنْ شدّةِ التّعبِ، لا يبقى للبقِّ إلّا حمْلِي مِنَ الغرفةِ إلى الأرْوِقَة. وعنْدَ الغداءِ، تدبّ حشراتٌ صغيرةٌ على شريحةِ اللّحمةِ الصّلبةِ،

وفِي العشاءِ آكلُ موزةً من «ساو تومي» أو قطعةً مِنَ «الكسافا» مَصْحُوبةً بقَهْوةٍ صافِية. لا. فعلَى الأقلّ، في «ناتال» كان هُناكَ حُبٌّ، وكان هُناكَ أصدقاءُ الطّفُولة. أمّا هنا، فلا يسعُنِي إلّا أنْ أعطسَ، وأمسحَ أنفِي، وأشعُرَ بأنّني أتعسُ المخلوقاتِ فِي الدُّنيا. وشركةُ صيدِ الأسْماك؟ أهيَ مكانُ عملٍ مضمونٍ، ولهُ مُستقبَل؟ كلّ ذلك ليْسَ سوى مُجرّد وَهْم. فلا نُقُودَ عنْدَنا حتّى لشِراءِ قوارِبِ صَيدٍ صَغِيرة. ومنْ ثمَّ جاءتْ تلكَ النّتِيجةُ، وصارَ الجميعُ ينادونِي بالمتشرّدِ، ويعتقِدونَ أنّني لا أريدُ شيئًا في الحياةِ، وأنّ نوايايَ لا تتعدّى dolce far niente[1]. ابتسمتُ فجْأة. فمنْ يضمِنُ أنّهُ لا وجودَ لخلفِيَّةٍ حقِيقِيّةٍ وراءَ كلِّ ذلك؟ إنّ كلَّ الأعمالِ، وكلَّ المناصبِ مِلّةٌ عندي، وتبدُو جميعُها على نفسِ القَدْرِ مِنَ الرّتابَة.

وبينما كنتُ أحرّكُ رِجْلِي على المقعدِ، هيْمنَ الإحْبَاطُ على نفسِي، وتُهْتُ حقًّا. عمري يقتربُ منَ العشرينَ، ولم أقدّمْ أيَّ شيءٍ بَعْد... وسيكونُ الموتُ أفْضَل. سأذهبُ إلى البحرِ، وأسبحُ حتّى أتعبَ، ثمَّ سيجدُون جسمِي عائِمًا، ملِيئًا بالسّرطانِ الّذي يأكلُ عينيّ. وهَكذا، سيتحدّثونَ عنْ قِيمةِ الموْتى: «لقد كان فتًى طيّبًا، قويًّا، ووسِيمًا».

عطَستُ مِنْ جديدٍ، وتملكّتنِي رغْبةٌ في الضّحكِ، لأنّني تذكّرتُ المَعْهدَ، وتحدِيدًا، عندَما أسندَ إليَّ الرّاهبُ أمبروزيو علامةَ سبعينَ فِي

(1) عبارة إيطاليّة معناها اللّفظيّ «متعة ألاّ تقوم بأيّ شيء» وتعني الابتعاد عن الأعمال اليوميّة والواجبات الروتينيّة وتمضية الوقت في القيام بأشياء سهلة للمُتعة فيها بعض الكسل والاسترخاء مثل التسكّع في الساحات والمقاهي والاهتمام بالهوايات الشخصيّة الهادئة. (المترجم)

1136

اختبارِ البرتغاليّةِ، فِي حينِ كنتُ أسْتَحقُّ مائة. لمْ أبكِ فِي حياتِي كثيرًا مثلمَا بكيتُ ذلكَ اليومَ، وكنتُ على وشكِ بلوغِ الخامِسةَ عشرة. شرٌّ، وخيانةٌ، واضْطِهاد. لقد فعلَ الفظُّ النّحِيلُ السّيِّءُ ذلكَ ليُهينَنِي أمامَ زملاءِ الصّفِّ الكبِير، ولذلكَ ذهبْتُ إلى الشّاطئِ ظُهرًا، وترَكْتُ ملابِسِي على الرّملِ، وأخذتُ أسْبَح. سبحتُ عبْرَ أمواجِ البَحْرِ الكبيرةِ الدّافِئَة. لقد ماتَ كلُّ شيءٍ فِي حُزْنِي، وعَنَتْ كلُّ حرَكَةِ ذراعٍ قرارًا حزِينًا للغَاية. لنْ أشرحَ أيَّ شيءٍ لأيٍّ كان، فمنْ سيموتُ لا يعنِيه ذلك. ثمّ واصلتُ السّباحةَ نحْوَ عُمْقِ البحرِ أكْثَرَ فأكْثَر. لقدْ عزمتُ علَى السّباحةِ حتّى التّعب، حتّى يُمسكَ بِي كلبُ البحرِ، حتّى يقتربَ اللّيْل، ولنْ أنظرَ إلى الوراءِ لأرَى أضواءَ حيِّ «درابزين بيتروبوليس». سيُعلنُ عنْ يومِ عطلةٍ فِي المعْهد. وسيُصلّونَ مِنْ أجلِي لأنّهُ لا أحدَ سيكونُ مُتأكّدًا مِن انتِحاري. قوّى الحزنُ فِي ذِراعَيّ الرّغبةَ فِي مُواصلةِ السّبَاحة. وبدافعِ الفُضُولِ، استدرتُ، وتوقّفتُ. تراءى الشّاطئُ بعيدًا، وبدتِ البيوتُ صغِيرةً، صغِيرةً للغايَة. هزّ البَحْرُ الأزْرَقُ العظِيمُ جِسْمِي، وارتفعتِ الأمواجَ بعيدًا ونَزَلت. عليّ مواصلةُ السّباحةِ، وإلّا فإنّ رغبةَ الموْتِ ستتَلاشَى. وداعًا كونسيساو، فالديفيا، ماريا دي لوردس، مارلِي، ماريا أبولونيا، إيدا... وداعًا لكلِّ قصصِ حُبِّي الكبيرةِ الّتِي عشتُها خِلالَ حياتِي المُرّةِ طيلةَ خمسَ عشْرةَ سنة. وداعًا، كارمن! فكّرتُ فِي صُورِها، وهي ترتَدِي زيَّ «باهيا»، جاهِلةً أنّ شخصًا مِثْلِي قدْ أحبّها كثيرًا... لكنْ، مِنْ بعِيد. وداعًا، يا كارمن ميرندا، يا منْ تزيّنُ صورُها كلَّ جدْرانِ غُرفَتي.

بدأ التّعبُ يداخِلُ ذِراعَيَ، ولهَثتْ أنفاسِي، وارتجفَتْ أطرافُ أصابِعِي منَ البرْد. حدثَ كلُّ ذلكَ عندمَا سمعتُ صوتًا يصرُخُ عاليًا، ولمْ يكنْ بَعْدُ صَوْتَ الرَّبّ.

- يا صبيّ! أنتَ مجنون؟ إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ هَكذا؟

تمايلَ قاربُ صيّادِينَ أمَامي. فسبَحتُ نحْوَهم، وصعِدتُ علَى متنِه. نظرَ الصّيادونَ إليّ بذُهُول.

- ما هذا يا صَبِيّ؟

وعندَها فحسب انتبهتُ لسببِ الدّهشةِ، فقدْ خرجتُ منَ السّباحةِ عارِيا. كنتُ مُرهَقًا إلى درجةٍ لمْ أقدِرْ معَها على التّنفّسِ والإِجابَة.

- ماذا لو مَسكَ بكَ كلبُ بحْرٍ، يا صبيّ؟

خفضتُ عينَيَّ، وشعُرتُ بدوارٍ مِنْ تمايُلِ القارِب، وشيئًا فشيئًا، بدأتُ أسْتوعِبُ خيْبَةَ أمَلِي.

- رغِبتُ فِي السّباحة... ولمْ أنتبِهْ لابتِعادِي كثِيرًا.

- وأينَ ملابِسُك؟

- إنّها هُناكَ علَى رِمالِ الشّاطِئ. إلى أينَ سيذهبُ هذا القارِب؟

- عائدٌ إلى «بونتا نيغرا».

- هذا بعِيد.

- هل تخشى العوْدَة؟

طبعًا، فقد أحاطَ الخوفُ بِي مِنْ كلِّ جانِب. ولكنّني، تظَاهَرْتُ بالضَّحِك.

- لا.

- مِنْ أينَ أتيْت؟

- مِنْ شاطِئ «برايا دو مايو».

- حسنًا، سنأخُذُكَ في ذاكَ الاتِّجاه، ثمّ اقفزْ فِي الماءِ، واتبعِ التّيّارَ الّذِي بدأ يكبُرُ، ولكنْ، اذهبْ مُباشرةً إلى الشاطئ، فقدِ اقتربَ اللّيْل.

كان القاربُ يتمايل، أمّا أنا فقد ضمَمْتُ رِجليّ خجلًا، وأخفيْتُ ذكَرِي. يبدُو أنَّ قسْوةَ الجُهدِ الّذِي قمتُ بهِ، كثّفتِ الدّمَ في عُروقِي. لم يكن بالإمكان مناشدتهم لتغيير قرارهم. توجّب عليّ أن أعود كلّ تلك المسافة مع حركاتِ سباحةٍ أطول. ضحِكَ أحدُ الصّيّادِينَ، وعلّقَ بصوتٍ عالٍ:

- تخيّلْ لو تُسرَقُ ملابِسُهُ علَى الشّاطِئ.

ربّاه! لمْ أفكّرْ فِي ذلك. والآنَ، ظهَرَ سببٌ آخر، فضلًا عنْ ظلامِ اللّيلِ، وكلبِ الماءِ، لأسُرِّعَ حركاتِ الجسمِ المُتْعب. أغلقتُ عينيَّ، وأخذتُ نفسًا عمِيقا. كان البردُ يشتدُّ مع هُبوبِ الرّيحِ، كلّما تقدّمَ القارِب.

- اقفزِ الآن، أيّها صبيّ!

شَكَرْتُه، وقفزت. وفي غُضونِ ثانيةٍ تَحرَّكَ القارِبُ بعِيدًا في اتّجاهِ البَحْرِ الصّاعِدِ، والعشيّةِ الّتِي بدأتْ تُظلِمُ الأفُق.

بدتْ أضواءُ المدينةِ، مِنْ درابزين «بيتروبوليس» أكثرَ إشْراقًا.

ولمْ تُسرَقْ مَلابِسِي.

أتذكّرُ أنّني تَلوْتُ «سلامٌ عليكِ يا مريم» معَ كلِّ تحريكٍ لِذرَاعَيَّ، إذِ ارْتَعَبتُ، وأحسستُ بالأسماكِ تُحِيطُ بِي مِنْ كلِّ اتّجاه. أمّا الآنَ، فقدْ تجاوزتُ الرّغبةَ فِي المَوْت. سقَطتُ على الشّاطِئِ، وشعُرتُ بطعمِ الدّمِ فِي فمِي، وبارتِجافٍ فِي السّاقيْن.

بدأَ الظّلامُ يشتدُّ، وأنا لا جُهْدَ لي لارتِدَاءِ مَلابِسِي، والعودةِ إلى المَنْزِل. وبِمَا أنّنِي ما زلتُ حيًّا، وجبَ عليّ تحمّلُ أكبرِ الخيْبَات.

عندما دخلت غرفةَ الجلوسِ، كانَ الجميعُ حوْلَ مائدةِ الطّعامِ يتناوَلُون العَشَاء. فوبّختْنِي أمّي.

- لا تصلُ أبدًا في ساعةِ تناوُلِ الطّعَام؟

- لا أريدُ العشَاء.

- لماذا؟ كُلْ أيَّ شيْء...

خفضتُ رأسِي، وعبَرْتُ غرفةَ الطّعامِ، ثمَّ صعِدتُ الدَّرجَ، وقصدْتُ غُرْفَتِي.

يا لهمْ منْ جمَاعَة! كدتُ أموتُ، ولا أحدَ منْهم ودّني بقطرةِ حَنَان!

أخذتُ البيجامة، ومِنْشَفةَ الحمّام. فقدْ أردتُ غسْلَ جسدِي مِن الملحِ، وإزالةَ مَرارةِ الرُّوح.

إثْرَ ذلكَ، استلقيتُ في الغرفةِ، على سرِيري. كانتِ النّافذةُ مفتوحةً على مصراعيْها، فلمْ أستطعِ التّنفُّسَ بشكلٍ مُريح. ومعَ ذلكَ، حلّ بِي ذلكَ التّعبُ الفظيعُ الّذِي تركَ فمِي مفْتُوحًا. سمعتُ خطًى على الدّرجِ، وإذا أبِي يدْخلُ الغُرْفَة.

- ماذا حدثَ يا بُنَيّ؟ لمَ لمْ تتعشَّ؟

- لا شيْء.

أدرتُ عينيّ إلى الجهةِ الأخْرى كيْ لا أنفجَر باكِيًا. رغِبتُ في الارتماءِ بيْنَ أحضانِه، وإخبارِه بكلِّ شيْء. ولكنّني عدِمتُ الشّجاعَة. فهو لمْ يعامِلنِي يومًا بالطّريقةِ الّتِي أردتُها. أمّا أخواتِي، فنَعم.

- لمَ لمْ تُخْبرِنِي مُباشَرَة؟

الوجهُ الوسيمُ ذُو اللّحيةِ الكثيفةِ، والحُمْرةِ علَى الخدّيْن: أبِي. في تلكَ اللّحظةِ، شعُرتُ بأنَّ عليَّ الخُروجَ مِنَ المنزلِ مباشرةً، والذّهابَ للتّجوّلِ فِي أنحاءِ العالَمِ، مُتسكّعًا فِي كلِّ مكانٍ، باحِثًا عنِ الحنانِ والحُبّ. سيُرحّبُ بِي اتّساعُ جغرافيّةِ المُشرّدِين بلا مُبالاة.

- سبحتُ كثيرًا، فتعِبْت.

- اخلعْ سترةَ البيجامةِ، وقِفْ.

قرّبَ وجهَهُ مِنْ صدْرِي باحثًا عنْ آثارِ التَّعَب.

- تنفّسْ بقُوّة.

أطعتُه. استغرَبْتُ طرِيقةَ الحنَانِ تلكَ، ولكنّني تمنّيتُ لو يبقَى إلى جانبِي الحَيَاةَ بأكْمَلِها، هَكذا، قرِيبًا مِنّي.

- أدِرْ ظهْرَك.

وضَعَ وجْهَهُ مَرّةً أخْرَى علَى ظَهْري. ثمّ وقفَ.

- ماذا فعلْت؟

- سبَحتُ كثِيرًا. ولم أستطع التنفّس إلّا بمشقّة.

- هل تشعرُ بألمٍ مّا؟

كذِبتُ.

- أشْعرُ بألمٍ هُنا، فوْقَ صدْرِي.

استأنفَ أبِي مُعاينتِي، ولكنْ، هذهِ المَرّةَ فتْرةً أطْوَل. نظرتُ إلى شعْرِهِ الأسْودِ النّاعمِ الخالِي منْ أيّةِ شعْرةٍ بيْضاء. ربّما لمْ يُحبّنِي لأنّنِي أشقَر. يجبُ أنْ يكونَ الأمرُ كذلك. لا. لا بُدَّ أنْ يكونَ السّببُ مُختلفًا. فأنا لا أنفعُ فِي أيِّ شيْء.

- هل أنتَ أصَمّ؟

رفعَ رأسَهُ لحْظةً، ونظرَ إليّ مُندَهشًا.

- لقدْ طلبتُ منكَ مرّتَيْنِ أنْ تتَنفّسَ بقُوّة.

ثمَّ عادَ يفحصُنِي مِنْ جدِيد.

فكّرتُ في الاكتشافِ الّذِي توصّلتُ إليهِ: عندمَا أمْرَضُ سيُعطِينِي أبِي مَزِيدًا مِنَ الاهتِمَام.

نهضَ بعزمٍ، ثمَّ ضربنِي على صدْرِي ضاحِكًا.

- لاشيء. فقطْ بعضُ التّعب. إذا لم تتحسّنْ غدًا، سنأخذُ لكَ صورةً بالأشعّةِ السِّينيّة.

ذهبَ إلى غرفتِهِ، ثمّ عادَ حامِلًا بعْضَ الكبسُولات.

- خذْ هذا وستقْضِي ليْلةً طيّبَة...

- تصبحُ على خيرٍ يا زاي.

نظرَ تارسيسيو إليّ، بينما أضيئتِ السّاحةُ تمامًا، فظهرَ أناسٌ كثرٌ، وخاصّةً الأزواج والعشّاق الّذينَ يستهلكونَ الأحذيةَ والحيَاة.

- اجلِس. ما الّذِي حَصَل؟

- أزْعَجتْنِي زيَارَةُ المَعْهَد.

- لقد رأيتُ ذلك.

- هل كانَ الرّاهبُ أمبروزيو في حاجةٍ إلى فعلِ شيءٍ مِنْ ذاك القبِيل؟

وحصلَ الشّيءُ نفسُه مرّةً أخْرى.

دخلنَا المَعْهدَ بتلكَ الفرْحةِ الّتِي تُولدُ مِنْ جدِيدٍ عندَما تصطدِمُ بأيِّ شيءٍ فِي الحياةِ، فلا تُبالِي بِمَا حدثَ، وتندفعُ نحو المَرَح. استهلَّ الحفلَ الرّاهبُ فيليسيانو المُعجَبُ بكلِّ شيْء: «كيف كبُرتَ وصِرتَ قويًّا»، ثمّ قُدّمَ عرضٌ حوْلَ الرُّوحِ، ليظْهرَ بعدَ ذلكَ الثّوبُ الرّائِعُ للرّاهبِ أمبروزيو وهو ينزل الدَّرَجَ بأبَّهَةٍ، بينما كانت عيناهُ تعكسان نظراتِ ذلكَ الباحثِ المرتاب.

- إذن يا زيكا؟

- نعَم.

- ترَكْتَ الدِّراسَةَ مُجدَّدًا؟

- كان ذلك هو الحلُّ الوحِيد.

نظرَ الرّاهبُ أمبروزيو إلى تارسيسيو، وابتسمَ مدقِّقًا النّظرَ بعينيْهِ الصّافيتيْنِ، فِي مَوْقِفٍ عصَبيٍّ عهدناهُ لدَيْهِ مُذْ كنَّا صِغَارًا. ثمّ اعترتْ صوتَهُ قَسْوَةٌ تسَرّبَتْ بيْنَ طَرِيقتِهِ النّاعِمَةِ فِي الكَلام.

- ها هُو الصّبيُّ الّذِي تركتُهُ عِنْدَ أبوابِ الكلّيّةِ، ولكنَّ كُلَّ ذلكَ ذَهَبَ سُدًى.

خفَضْتُ عينَيّ بغَضَب. فحيَاتِي كلُّها تتلخّصُ فِي هَذا المَوْقِف. لقد ظلَّ الرّاهبُ أمبروزيو يثِيرُ كبريائِي لمُواصَلةِ الدِّراسةِ مُذكِيًا غرُورِي؛ وعندما يرى أنّي انتشيتُ بذاتِي كثيرًا، يتعامل معي بقسوةٍ تبلغ درجة الإذلال.

- والآنَ أيُّها الصّبيّ؟ ماذا عَنْ شركةِ الصّيدِ تلك؟

- لمْ يتقدّمِ الموْضُوعُ، بل باءَ بالفشَل.

- وماذا ستفْعل؟

أردتُ أنْ ألعنَه، وأن أقولَ له إنّني لا أحتاجُ إلى إرضاءِ أيٍّ كان فِي حيَاتِي، وإنّني سأبلغُ العشرينَ منْ عمري، وإنّني رجلٌ، ويمكنُ أنْ تكونَ لدَيّ عشيقاتٌ، وأمراضٌ تناسليّةٌ، وكلّ شيْء... ولكنّني صمَتُّ. وفي لحظةٍ، خطرتْ لي فِكرةٌ ستسْتَفِزُّه.

- سأنضمُّ إلى المسْرَح. سأذْهبُ إلى «ريو دي جانيرو» حيثُ سأعملُ مُمَثّلَ سينما...

دعانِي تارسيسيو.

- لنذهبْ فِي نُزْهَة.

مَشَيْنا علَى مَهل.

- زاي، أنا قلقٌ بشأنِك.

- لا تقلقْ، فكلُّ شيءٍ عابِر. سأفجّرُ رأسِي يومًا مّا، وأتحوّلُ إلى فشارٍ، أو إلى عصِير.

- هذا لنْ يَحُلَّ شيئًا.

- ولنْ يحلَّ شيئًا انتقادُ الجميعِ لي. فلو أنَّ كلمةَ مُتشرِّدٍ الّتي ابتلعتُها كثيرًا تُسمِنُ، لَصِرْتُ كُرَةً. مُتشرِّدٌ فِي المنْزلِ، ومُتَشَرِّدٌ

فِي المَعْهدِ. لقدْ تجسَّسَ الأصْدِقاءُ عليَّ، وإنْ لمْ يقولُوا ذلكَ علنًا، فإنّهم يفكّرونَ فِيه فِي سِرِّهم.

كانتِ الجغرافيا تفتحُ الخرائِطَ فِي ذهْنِي. «ماطو غروسو»، غابةٌ، «غوياس»، غابةٌ، هنودٌ حمْرٌ، غابةٌ، جزيرةُ «بانانال»، أكبرُ جزيرةٍ نهريّةٍ فِي العالَمِ، غابَة. يا إلهِي! سأموتُ، سأموتُ وأخْتَفِي. هذِهِ الحيَاةُ مُخزِيةٌ، وحزِينةٌ، وتافِهة.

- لماذا لا تبْحثُ عنْ عَمَل؟

- كيف؟ ليستْ لديَّ رُخْصَةُ جنْدِيٍّ احتياطٍ، لقد تجاوزْتُ عمرَ القيامِ بطَلَقةِ الحرْبِ، وذلك يتمُّ فقطْ فِي مدينةِ «ريسيف». عليَّ انتظارُ عمَليّةِ القُرعَة.

- ولماذا لمْ تفكّرْ فِي هذا مِنْ قبْل؟

- لمْ أفكّر. هذا ما حَصَلَ، وماذا بَعْد؟

عدتُ إلى هُروبِي، أركَبُ شاحِنةً، وأقطَعُ الغاباتِ، وأنزِلُ الأنهارَ مُجدِّفًا. الشّمسُ مِنْ أجلِ الحُرّيّةِ الغَالِيَة. مِمْحاة. حُمّى. حتّى إنّني شعرتُ بأوهامِ المَرَض. سأموتُ بعيدًا في الخلاءِ دونَ إزعاجِ أحَد. لا أحَد. وحيدًا هُناك. وهَكذا، أنهِي إلى الأبدِ هذه الحياةَ التّعِيسة. ولكنْ، في سِنّ التاسِعة عشْرةَ، لا يبْلُغُ الحُزْنُ أبدًا حَجْمًا تراجِيديًّا يمنعُكَ مِنْ رؤيةِ أجْملِ الأشياءِ في الحياةِ، تلكَ الأشياءِ الّتِي قدْ لا تستغرقُ أكثرَ منْ عشرِ دقائقَ عِنْدَ رُؤيةِ فتاةٍ جميلةٍ تمرُّ أمامَك.

ضاعتْ عيناي.

- من ذلك الحيوان، يا تارسيسيو؟

- خمّن.

- لا أعرِف. لقد وصَلتُ منذُ قلِيل. بِضاعةٌ جدِيدةٌ فِي السّاحَة.

مشتِ الفتاةُ، واستدارتْ، ثمّ ابتسَمَتْ، وواصَلتِ المَشْي.

- لا تعْرف؟ ألا تعْرِفُ حقًّا، يا زاي؟

- أقسمُ لكَ أنّني لا أعْرِف.

- إنّها سيلفيا، الّتي تقيمُ فِي الزُّقاق.

- لا!...

- نعم. هي.

- يا لهُ منْ شيءٍ جمِيل!

- وما الّذِي تنوِي فِعْلَه؟

- أنْ أعانقها.

- لا، يا زاي. أنا أتحدّثُ عَنْ خُططِك. عنْ أشْياءَ جِدّيّة.

قهقهتُ.

- كفاكَ عبثًا. سأعانقها فِي أوّلِ فُرْصَةٍ.

الفصل الثّالث

حبّ

صفّرتُ أمامَ النّافذة.

تسعَ عشْرةَ سنةً، تكادُ تقتربُ مِنَ العشرين.

صرتُ رجلًا. قمتُ بمشْطِ شعْرِي وتسْرِيحِه بِعِنَايَة. لمْ يكنْ للأغنية أيُّ معنًى، وإنْ قُدّتْ مِنْ كلماتٍ، فلا يمكنُ ترجمةُ الفظاظةِ الكبيرةِ الّتِي اتّصفتْ بِها:

أنا مالِكُ اللّيلِ،

تحيا الحَياة!

نساءٌ، فتياتٌ، فتياتٌ، نِساء ...

نساءٌ، فتياتٌ، فتياتٌ، نِساء.

نتعَشّى. نتعَشّى.

هُناك نجومٌ لامعةٌ فِي اللّيلِ، هُناك نُجوم...

وأنا ذاهبٌ إلى هُناك اليومَ، بِدايةً مِنَ اليومِ لنْ أذْهَب...

فو-فورو-فوفو...

توقّفتُ عنِ الصّفيرِ، وضحِكتُ حتّى تُحسِّنَ الحَياةُ مِنْ أنْفِي. صحيح أنّه يشبه نصف حبّة بطاطا، ولكنّه يحظى بسحر خاصٍ. اسْتَعذْتُ ذِكْرياتِ شوارعِ «ناتال»، مُحدِّدًا مواقعها جميعَ نجماتِ السّينما اللّواتِي أحْبَبت. فبالقرب من السُّوقِ، عُلّقت صورةُ *ديانا دربن*، وإلى جانبِ *غراندي بونتو* تُطالعني *دوروثي لامور*. ولكنَّ أمّي لمْ تُعْطِنِي الفُرْصَة. وهُناك، عِنْدَ مُنعَطفِ «جافينو باريتو»، عِنْدي أيضًا *مارينا* السّمْراءُ، ذات العينينِ الخضراوين. مع أنّ تلكَ لا تنفعُ إلّا فِي وقتٍ متأخّرٍ، فِي الظّلامِ، هُناكَ، تحْتَ شَجرَةِ المانغو. وماذا عنْ *جانيت*؟ يا لهَا منْ سمكةٍ كبِيرة!... غيْر أنَّ الرّجلَ العجوزَ نصحني بأنْ آخذَ حذرِي لأنّه رآها تنتظرُ أحدَ الحمْقى والمغفّلِين...

الشّيطانُ هو الّذي يجعلني مندفعًا، لا يخيفني شيء! فطالمَا اعْتَرَتْنِي تلكَ الفرحةُ، وتلكَ النّشوةُ، وتلكَ الرّغبةُ في العيشِ، وفي الحبِّ، وفي السّباحَة. وطالما تحرَّكَ الشّيطانُ الهِنديُّ الأحمَرِ فِي دَمِي. ضحكتُ ثانيةً. إنّه البحرُ... البحرُ الجميلُ الشّاسعُ كلّهُ لي. ما أجمل أن تُقضّي الصّباحَ تائهًا في الرّمال وداخِلَ المَاء. «كاراو» في الغَدَاء... نهرُ «بوتنجي»، جزرُ البحرِ، نهرٌ ممتلئٌ، ولذيذٌ، حيثُ أظلُّ تقريبًا حتّى السّابعةِ مسَاء. ثمّ أُوبَّخُ عِنْدَ العَشَاء. ساعَة؟ ساعةُ حائطٍ، زمنٌ، عشرون سنةً، عشاءٌ، عشاءٌ... نظرتُ فجأةً إلى ملامحِي، فقدّمتْ بشَرَتي المحترقةُ إليّ اعتِرافًا أخْرَجَنِي، ولكنّه أرضانِي في الوقتِ نفسِهِ:

- أنا قويٌّ قليلًا، ووسيمٌ قلِيلًا...

فتحتُ بابَ الغرفةِ، وخرجتُ لأتعشّى. كانَ الطّعامُ كلّهُ لذيذًا في تلكَ اللّيلة. لمْ يحتجَّ أحَد. تراءتْ أمّي جميلة. وبدا أبي صديقًا كبيرًا لي، حتّى شككتُ في الأمر. فمنَ المؤكّدِ أنّه في اليومِ التّالي سيكونُ... ولكنْ، لا شيءَ يهُمّ.

كانت ليلةً رائعةً، مرّتْ دافِئةً، ولكنّني كنتُ أستشعرُ ريحًا قادِمةً مِنَ الشّاطِئ، منْ جِهةِ أشجارِ جوزِ الهندِ، مِنَ الرّمالِ، مِنْ عُمْقِ البَحْر.

- سأذهبُ إلى هُناكَ اليوم؟

- إلى أين؟

انتابتْني قشعريرةٌ، وأنا أحدّقُ في أختِي الكُبرى. تلك السّاحرةُ الّتي طالما جعلتْ حياتِي بائِسة. فهي تحيكُ دَسائِسَها ومَكائِدَها، وتتدَخّلُ في كلِّ شَيْء. سيأتِي يومٌ لنْ أُحادثها فيه أبدًا. أمّا أختِي الصّغْرى، الّتي كانتْ فعلًا أخْتِي، فقد كانتْ تترُكُني في سَلام. وعانتْ بدورِها منْ أختِي الكبْرى.

- أنتَ... منْ تُكلّم؟

- هذا ليْسَ منْ شأنِك.

نظرَ إليّ العَجوزُ مُوَبِّخًا. فصمَتُّ. مِنَ الأفضلِ أنْ نعيشَ داخلَ أفكارِنا. «سأذهبُ إلى هُناك. لقد عرفتُ أين تسْكُنين. هل عرفتِ معنَى العبثِ بفَتى؟ إنّها تسْكنُ بالقُربِ مِنْ شارِعِ «ريو برانكو». ولديْها أخٌ، وهو كلبٌ سلوقِيّ. نمشي ذراعًا بِذراع ...».

شرِبتُ القهْوةَ، ومددتُ ذراعِي لامِسًا أبي.

- سيجارةً يا دكتور.

مدَّ لي العلبةَ والولّاعَة. نهَضتْ أمِّي وأختايَ، وصعِد العجوزُ الدّرجَاتِ مُحدثًا طرقًا بكعبِ شبشبهِ لنْ أنساهُ أبدًا. كنتُ مُستعِدًّا للخُروجِ عِندَما ناداني منَ الشّرْفَة. طيّب. ألمْ أقلْ إنَّ ذلكَ سيحدُث؟ والآن. صعِدتُ بسُرْعَة. وجدتهُ جالسًا على كرسيٍّ هزّاز.

- هل ناديتَنِي؟

- اسحبْ كرسِيًّا، واجلسْ إلى جانِبي.

حككتُ رأسِي. أأنا مشوّشُ الذِّهْن؟ فهِمَ حركتِي. لقد رصدَ شيئًا مُحزنًا في طريقةِ نظَري إلى اللّيلِ فِي الخارِج.

جلستُ بالقربِ مِنْه.

- لا. أنتَ تعرفُ ما الأمْر؟ يعني...

لمْ يردَّ على جمْلتِي. مرّرَ يدَهُ على ذِراعِي، ثمّ مسّدَ على شعْرِي بلُطف.

ما الّذي يحدُث؟ تقبّلتُ الأمرَ، وتركتُ يدَهُ تواصلُ مُداعبَتي، ولم تعد لي رغبةٌ في الخروج. سألتُه بصَوتٍ مُنخفِضٍ ومتواضِع:

- ماذا تريدُ منّي يا دكتور؟

يبدُو أنّ اليدَ الموضُوعةَ على ذِراعَيّ تريدُ أن تُخبِرَنِي بكلِّ شيْءٍ،

لكنّ أبِي لمْ يتّخذْ قرارَهُ بعدُ، وصمتَ حتّى تمكّنَ مِنْ كسْرِ حاجِزِ الصّمْت.

- هل أنتَ سعيدٌ اليوم؟

-سعادة لم أعرفها من قبل.

- هل عندكَ فتاةٌ جدِيدَة؟

- ليْسَ مؤكّدًا بعدُ، ولكنّ الأمرَ قرِيب. ماذا تريدُ أنْ تخبِرني؟

- ليسَ مُهِمًّا. سنتحدّثُ لاحِقًا.

احتوتْ طريقةُ حديثِهِ على حزنٍ فتّاكٍ، وبدا كأنّ شيئًا خطِيرًا يحدُث.

- أنا أعرفُ ما هو. لا داعي للقَوْل. ولكنْ، أنا أبذلُ جهدي. لقد تمكّنتُ من الحصولِ على وظيفةِ مراقبٍ للبضائعِ على السّفن، في الشّركةِ السّاحليّةِ، وسأباشرُ العملَ عِندَما تكون هذهِ الوظيفةُ شاغِرَة. هم يدفعُون القليلَ، لكنّهُ دائمًا أفضلُ مِنْ لا شيء. سأستطيعُ شِراءَ شيءٍ مّا لي. فعلى الأقلّ هو عمَلي...

بدأتُ أخلطُ الأشياءَ، ولمْ أستطعِ التوقّفَ عنِ الحدِيث. فحلّتْ تلكَ المُبَالغَةُ الدّائِمَةُ فِي كلِّ شيء، وذلك الارتباكُ فِي كلِّ شيْء. لا شيء يُقَرّرُ في حياتِي برصَانةٍ، لا شيْء.

- بعْدَ ذلكَ، وعندَما أنْتهِي منَ الخِدْمةِ العسْكرِيّةِ، سأرْحلُ بعِيدًا.

مِنَ المؤسفِ أنْ أصِيرَ مُتشرِّدًا، فهيَ حالةٌ لا تفرزُ إلّا الحزنَ والإجْهَاد.

ضغَطتْ يدُ أبِي على ذراعِي بقُوّة.

- ابنِي، ما هَذا؟

عندَما رآني أعطسُ، أخرجَ مِنديلًا مِنْ بيجامتِه.

- نظِّفْ هذا الوجه. لم يكنِ الأمرُ كذلك أيُّها الأحمَق.

بقيتُ أنظرُ إلى اللّيلِ دونَ رغبةٍ فِي أيِّ شيْء. فابتسمَ أبِي بهدوءٍ، وذاكَ ما أحْزنَنِي أكثر.

- هل تعرفُ ماذا يقُولونَ عنْك؟

هززتُ رأسِي دونَ أيِّ حَماس.

- يقولون إنّك أجملُ فتًى في «ناتال»، وهذا يجعَلنِي فخورًا بك. لا تهْتمَّ بمَا يحدُث. ستصيرُ مُهِمًّا فِي الحَياة. وأنا أعتقدُ حقًّا أنّهُ سيكونُ لكَ مُستقبَلُكَ الخَاصّ...

لم يحدثْ أنْ قال لي أبي كلامًا جمِيلًا من قبل. لقد انتظرتُ تلكَ اللّحظةَ سَنواتٍ طوِيلة. صحيحٌ أنّها كلّفتنِي الكثيرَ، ولكنْ، أنْ تأتِيَ متأخِّرةً، أفضلُ منْ ألّا تأتِي.

ثمّ واصلَ بهدُوء.

- كان يُمكن ألاّ نتجمع، ولكن صارت لديك شخصيّة قويّة

رغم صغر سنّك، أمازلت غاضبًا منّي؟

- لا أغْضَبُ مِنك مُطلقًا.

- وماذا عنِ الفتَاة؟

- سَألقَاها لاحِقًا.

- ما قِصّةُ هَذا العَمَلِ فِي المِيناءِ الّذِي تتَحدّثُ عنْه؟

- عَمَلٌ عرضِيٌّ، غير دائِمٍ، سأهتمُّ فيه بعنبَرَيْ سَفِينةٍ، وأعُدُّ الحمُولةَ الصّادِرةَ والوارِدَة. كلُّ رافعةٍ تحتوي على اثنتيْ عشرةَ بالة.

- ما الرّافعةُ الملعونةُ هذه؟

- إنّها الحمُولةُ المُقيّدةُ الّتي تأتِي على الرّافِعة.

- أينَ تعلّمتَ كلَّ هذا؟

- هل تذكرُ تلك اللّيلةَ، عِندَما عُدْتُ إلى البيْتِ صَباحًا، ولمْ تتحدَّثْ معِي مُعتقِدًا أنّني عُدْتُ مِنْ سَهرةٍ حمْراء؟ وقتَها كنتُ على متنِ سفينةِ «إيتاهيتي» أتدرّبُ لأكونَ مستعدًّا حالمَا تحِينُ الفُرصَة.

- ولماذا لمْ تخبِرني؟

- لقد غضبت مني بسرعةٍ، دون أن تطرح عليّ مجرّد سؤال.

- خذْ سيجارةً، وهيّا بنا ندخّنُ غليونَ السّلامِ معًا.

ظلَلْنا ننفثُ الدُّخان بصمْت.

- اذهبْ، وقابلْ فتاتَك. أنتَ شابٌّ جيِّد!

- ماذا كنتَ ستخبِرنِي أيضًا؟

- غدًا، أو لاحقًا، عندما تعودُ إلى المنزِل. ألديك نقُود؟

- مفلسٌ تمامًا.

مسكَ بورقةٍ نقديّةٍ منْ عشرةِ آلافِ ريايس، ثمَّ دسَّها فِي جيْبي.

- ربّما تودُّ الفتاةُ الذّهابَ إلى السّينما. هيّا اذْهب.

نهضتُ، ودون أنْ أشعُر، قبّلتُ أبِي علَى خدِّه، وأحسستُ بلحيتِه تخدشُ خدِّي. فهو لا يهتمُّ بهَا إلّا عندَ السّفر.

خرجتُ، ونزلتُ الدّرجاتِ بصمْت. وفِي الشّارعِ، لاحظتُ أنّ أبِي يتابعُني بنظراتِه. وفي هذه المرّةِ، كان قلبِي سعيدًا جِدّا.

وقفتُ إلى جانبِ الحائِطِ، حيثُ كانتْ هُناك خادِمةٌ تسْترِقُ النّظَرَ إلى الحيَاة.

- مساء الخيْر. أين سيلفيا؟

نظرتْ إليّ الخادمةُ بفُضول. استغرقتْ ثانيةً، ثمّ ردّت:

- خرجتْ.

لاحظتْ خيْبتِي. فضحِكتْ، وقلّلتْ مِنْ شرِّها.

- دونا سيلفيا ذهبتْ إلى هُناك، نحْوَ الأمَام. هل ترَى ذلكَ البيْتَ المُضِيء؟ مُرَّ أمامَهُ ببطءٍ، فهيَ هُناك.

- شُكرًا لكِ يا جمِيلة. أنتِ زهْرة. تُصْبِحين علَى خَيْر.

تمشّيْتُ أمامَ المنْزلِ، حتّى رصَدَتْنِي سيلفيا.

كان ذلك الحيوانُ يتحدّثُ مع فتاتيْن. فلوّحتُ إليها بفُتور.

أشارتْ سيلفيا إلى صدرِها كما لوْ أنّها تسألنِي: «أنا؟».

أومأتُ برأسِي مؤكِّدًا. فنزلتِ الفتاةُ درجاتِ الشّرفةِ مُسْرِعَة. بدَتْ نظراتُها تائِهة. وظهرتْ غمّازتانِ عمِيقَتانِ إلى جانبِ فمِها. بقيتُ صامِتًا، دونَ رغبةٍ في بدءِ الحدِيثِ، ولكنّ تهوّرَ الشّبابِ دفعَني إلى الأمَام.

- مساء الخير. كيفَ الحال؟

وسرعان ما تركتُ اللّباقةَ جانبًا وأمسكتُ يدها الصّغِيرةَ النّاعِمةَ بينَ يديّ.

- أنا بخير، وأنتَ؟

- أنا؟ كنتُ مارًّا منْ هُنا، وقرّرتُ التّوقُّف.

كانت سيلفيا أكثرَ دقّة.

- مَاذا ترِيد؟

زادَتْنِي الثّقةُ بالنّفْسِ وجَسارةُ الشّبابِ شجاعةً فقلتُ لها:

- جئتُ لأناغِيَك؟

أطلقتْ سيلفيا ضِحكةً عاليةً، ثمّ تراجعتْ بجسمِها خلفَ البَاب.

- ولكنْ، لديّ صاحب.

- وما المشكلة؟ تنهِينَ علاقتكِ به.

- ولكنّني أحِبّه.

- هذا هراءٌ حقًّا، ألمْ تُغازِليني منْذُ مُدّة ...؟

قمتُ بحركةٍ بيدِي.

- وأنتَ، ألمْ تقلْ لأبِي إنّني أعْرِضُ نفسِي أمامَ الرّجال؟

- كانتْ تصرّفاتِ صَبيٍّ أحمَق.

- ومع ذلك لا أستطيعُ أنْ أكونَ صاحبتَك.

كنتُ أنظر إلى عينيْها الصّغيرتيْنِ، ورأيتُ أنّ تينكَ النّجمتينِ المُضيئتينِ تقولانِ العَكس.

- حسنًا. بما أنّ الأمرَ كذلك، أعتذِر. تُصبِحين على خيْر.

نَدِمتْ بسرعة.

- انتَظِر.

عدتُ متظاهرًا بأنّني لمْ أرغبْ فِي الأمر.

- ما اسمُ صاحبِك؟

- نينيو.

- نينيو ليسَ اسمَ رجلٍ، بل اسم عُصْفُور. أليسَ ذلك الّذي يقْضِي الوقْتَ لابِسًا الزّيَّ العسْكَرِيّ في الكلّيّةِ الحربيّة؟

- همم... همم

- ولكنّ ذلكَ الفتَى لا يضمنُ مُسْتقبلًا لك.

صمتْنا ثانِيةً، كنّا مجنُونينِ نرغبُ فِي إطالة الحَدِيث، ونحتاجُ إلى مائتينِ وأربعِين ساعَةً متتاليةً على الأقل.

- إذن...

- لا أدْري...

- أنت لا تريدِين حقًّا؟

- من حيثُ الرّغبةُ، نعم أريدُ، ولكن ...

رانَ الصّمتُ مجدّدًا.

- ما أجملَ يدكِ الصّغيرة.

سحبتْ سيلفيا يدَها بسرعةٍ، ونظرتْ إليّ باسِمة. فظهرتْ مجدّدًا تانكَ الغمّازتان المحفُورَتان.

- انظرْ، عليّ أنْ أدخل. هل تريدُ الذّهابَ إلى احتفالِ الكرنفالِ فِي مسرحِ «كارلوس غوميس»؟

- أجل.

لا أدْري ما إذا كانَ لديّ نقودٌ لدفعِ تذاكرِ الدُّخول. ولكنّني سأقْترِضُ مَبْلغًا مِنْ تارسيسيو.

- نينيو سيذهب. لن ينتبه إلينا لأنّ المَسْرحَ سيكون مُكتظًّا، ويمكنُنا أنْ نرقُصَ كثيرًا. إلى اللّقاءِ لاحقًا.

ضغَطتُ على يدِها. فسارَعَتْ بصُعودِ درجاتِ الشّرْفة. من الأكيدِ أنّها ستُخبرُ صديقاتِها المتلهّفاتِ لمعرفةِ مَا حدث.

تراكو - تراكو - باتراكو... مشيتُ دونَ الانتباهِ إلى الأحجارِ النّاتئةِ فِي الشّارعِ الضيّق. ودنْدنتِ الرُّوحُ مثلَ قطارٍ صاخبٍ:

... أنا ذاهبٌ إلى البيتِ

لا. لنْ أذهبَ

أنا ذاهبٌ إلى البيتِ

لا. لنْ أذهبَ ...

يا فتًى، هل اقتربَ الكرنفال؟ نعم. إنّه على الأبواب. هذا رائِع! هذا رائِع. صعدتُ إلى قمّةِ الرّصِيفِ، وظللتُ أعدّلُ توازُني على الحافّةِ فرِحًا.

... لنْ أذهبَ إلى البيتِ

لن أذهبَ...

نعم، كانَ عليّ أن أذهبَ إلى البيتِ، ولكنّي لمْ أفْعل. جلستُ على مقعدٍ في السّاحةِ، وبقيتُ أنظرُ إلى اللّاشيء. لمْ أنتبهْ لانتِهاءِ الحرَكةِ،

ولا للنّسَائمِ البارِدةِ الّتي بدأتْ تخدشُ شُجيْراتِ الورْدِ الخاليَةَ مِنَ الأزْهارِ، ولا حتّى للأضواءِ الّتي خفتتْ فِي لحَظات. كانتِ السّماءُ مرصّعَةً بعددٍ كبيرٍ من النجومِ. انتبهتُ بكسلٍ إلى السّاعة. أشارتْ إلى العاشرةِ وعشرِ دقائِق. هُناك، في المنزلِ، لا بدّ أنّهم نامُوا. تقدّمتُ بخطوةٍ نحْوَ الحقِيقَة. وماذا عنْ أبي؟ ربّما لايزالُ ينتظِرُني. ومنَ المُؤكّدِ أنّهُ ماسكٌ بالمسبحةِ، وجالسٌ في الشّرفةِ يدَخّنُ سِيجارةً ورَاءَ أخْرى.

أسرعتُ في خطواتِي. أبي الآن هو أعظمُ رجلٍ في الدّنيا. لماذا كنّا نتشاجرُ دائِمًا؟ مرّةً بسببِ قدّاسِ عيدِ الفصحِ، ومرّةً بسببِ بعضِ الأشياءِ الّتي لمْ تعْجِبنِي فِي الكنِيسة. كان كلُّ شيءٍ خاطِئًا. فمنذُ الصّغرِ، خِلالَ أيّام المعهدِ الثّانويّ، واظبتُ على الذّهابِ إلى الكنيسةِ يومِيًّا. كنتُ أستيقظُ باكرًا مِنْ أجلِ تلك التّضحيةِ، وأصلّي وأنا أفكّرُ بلهفةٍ في القهوةِ الّتي سأشربُها بعْدَ ذلك. كانت صلواتٍ كثيرةً، بل كثيرةً جدًّا وتكاد لا تنتهي. كانتْ بينَ كلّ حصّةٍ وحصّةٍ، وفي كلِّ استراحَة. زووم - زووم - زووم منْ كثرةِ الصّلوات، وتلكَ الاعترافات الّتي يتصدّى الرّاهبُ لها لأنّ الخطايا تتكرّرُ دائمًا إنْ قليلًا أو كثِيرًا. لا بدَّ أنَّ الرّبَّ يُصابُ بالدّوارِ منْ كثرةِ الإزْعَاج...

ومع ذلكَ، لا أريدُ منَ الآن فصاعدًا، أن أتشاجرَ معَ أبي. فربّما أنفعُ لشيءٍ مّا فِي الحَياة. وعلى الأقلِّ، هُناك شخصٌ يثِقُ بي، أو بدأَ على الأقلّ يؤمنُ بقُدراتي.

وهي؟ بدأتْ خُطُواتي تتباطأُ، ولاحَ فِي ذِهنِي ارتِخاءُ اليدِ المخمَليّةِ تلك. سألتِهمُها بقضمةٍ واحِدَة. اللّعنةُ على اقترابِ الكرنفال. زاي، انظرْ إلى الساعة!

اقتربتُ من المنزلِ، ثمّ أطلقتُ صافرةً خفيفة. اشتعلتْ نارُ سيجارةٍ حمراءُ. لقدْ كان هُناك. فتحتُ البابَ، وخلعتُ حذائي. بالجواربِ لا أوقِظُ أحَدًا.

جلستُ إلى جانبِه.

- هل أنتَ مريض؟ لقد عدتَ مبكّرًا جدًّا.

- إنّها العاشرة. انتظرْني قليلًا لأخلعَ هذِه الملابس. فالجوُّ حارٌّ جدّا.

- تفضّل.

لمْ أنتهِ من ارتداءِ سروالِ البيجامة حتّى دخلَ العجوزُ الغرفةَ، ثمّ أغلقَ الباب. جلسَ فوقَ أرجوحتي الشّبكية، ووضعَ يديه فوقَ رأسِه. وظلّ يراقبُ كلَّ حرَكاتي. تولّد لديّ إحساسٌ بأنّ أبي عادَ إلى الواقعِ، وبدأ يكتشفني. أقسمُ أنّني أحببتُ ذلك.

- لقدِ اسمَرَرْتَ كثيرًا! توقّفْ عن السّباحةِ، وإلّا ستحتاجُ إلى استعمالِ حمّالةِ صدْرٍ قريبًا!

ربّتَ على صدْرِي بفَخْر.

- هذه عضَلاتٌ لا غير.

- هلْ وجدْتَ الفتاة؟

وضعتُ يدِي على ذقنِي، وابتسمتُ له. كمْ كان أبِي وسِيمًا! وكمْ صرتُ أحبّه! ...

- أجل. وجدتُها، ولكنْ، لديْها صاحِبٌ آخر. ستُنهِي العلاقَةَ به، ثمّ سأتزوّجُها!

- انتظر، لنبسّطِ الأمور. يا ابنِي، لماذا أنت دائِمًا هكذا؟ إمّا أنْ تكونَ حزينًا للغايةِ، أو سعيدًا بشكلٍ مبالغٍ فيه. إمّا أنْ تحبّ، أو أنْ تكرهَ. إمّا كلُّ شيءٍ أو الانتِحار. إمّا أنْ تكفَّ عن الذّهابِ إلى الشّاطِئ، أوْ أنْ تقضِّيَ ثمانِي سَاعاتٍ كاملة وأنت تسبح...

- ألم تقولوا دائِمًا إنّني أكونُ إمّا ابنُ ثمانيةِ أعوام أو ابن ثمانين؟ طيّب. ولكنْ، لماذا جئتَ لتتحدّثَ معِي في الغُرفة؟ لماذا كلُّ هذه الألغازِ هذا اليوْم؟

- لا أريدُ أنْ يسْمَعَنا أحَد.

جلستُ إلى جانبه على الأرضِ. إذنْ، فقد أصبْت. إنّهُ يريدُ اكتشافِي. ولا بدَّ أنّ الأمرَ سيصلُ به إلى أنْ يكشفَ لِي سِرًّا. لمْ أرِدْ أن ينظرَ إلى وجهِي، ولكنْ، لا شيءَ فِي الدّنيا يجعلنِي أفوّتُ سماعَ الكلماتِ الّتي سيبوحُ بِها. ومثلما كان الأمرُ منذ سنواتٍ، نظرتُ إلى شعْرِهِ الأسْود. غير أنَّ بعضَ الخيُوطِ البيْضاءِ، بدأت تظهرُ، الآنَ، هُنا وهُناك.

- لا يجبُ أنْ يعرفَ أحدٌ الأمر، قد أُجري بعد مدّة قصيرة عمليّةً جِراحيّة أخرى.

لقد ابتلعتُ للتّوِّ غُصْنَ عليّق.

- مرّةً أخرى؟ هل هذه مضاعفاتُ الكلى والمَثانَة؟

- أجل. وربّما، صارتِ الحالةُ أكثرَ خطورةً هذه المرّة. بعد أن...

- بعْدَ ماذا؟

- قلبِي ليْسَ في وضعٍ جيّد. لقد نصحنِي الطّبيبُ بالتّقليلِ منَ التّدخينِ، والاكتفاءِ بمقدارٍ قليلٍ جدًّا من الكحول، واتّباعِ حميةٍ غذائيّةٍ أيضا.

لا أزالُ أشعُرُ بالدُّوار. ففِي الحقِيقَةِ، كان أبِي بدِينًا أكثرَ منَ العادَة.

أسندتُ رأسِي إلى الأرجُوحَةِ الشّبَكِيّة. كمْ هُو مُزْعِجٌ أنْ تكُونَ رجُلًا قويًّا، ومعَ ذلكَ، تمتلئُ عيناكَ بالدُّمُوعِ فِي بَعْضِ اللّحَظاتِ!

- متَى ستُجْري العمَلِيّة؟

- ربّما في غُضُونِ ثلاثةِ أشهر.

تنهّدتُ بارتياح. فعلى الأقلّ ستتمُّ العمَليّةُ بعْدَ ثلاثةِ أشهرٍ، وخِلالَ هذه المدّةِ قدْ تحصلُ أشياءُ كثيرَة.

- لن يكونَ هُناكَ أيُّ خطَر.

- أرجُو ذلك.

وفجأةً، حدثَ شيءٌ لم أشهدْهُ منذُ صبايَ: كان أبِي يُمرّرُ يدَهُ على شَعْري بلُطف. وهو يتأرجح فوق الأرجُوحةِ الشّبكيّة.

- سأذهبُ إلى النّوم.

- هل تريدُ أن تبقَى هناك؟ سأنامُ على ذلكَ السّرِير.

- كلّا.

وقفنا في الوقتِ نفسِه.

- لا تقلق. هذا سيمُرّ... إنّهُ سرّ.

مشى نحْوَ البَاب.

- البرَكة!

- ليبارِككَ الرّبّ.

أغلقَ خلفَ ظهره بابَ حنانِي. فاستلقيتُ، وهززتُ الأرجوحةَ الشّبكيّة. إلى هُناك، إلى هُناك. وحلَّ الارتباكُ بأفكارِي مرّةً أخرى. لو يموتُ أبي، سأموتُ أنا أيضًا. عضضتُ على شفتيّ. لا. مازالَ الوقتُ مبكّرًا جدًّا لأتوقّعَ ذلك. ثمّ إنَّ النّاسَ يمُوتونَ عندَمَا يفقدون الأمل في الحياة. ظلّتْ عيناي مبلّلتيْن. يا لهُ منْ ربٍّ! حياتِي كلُّها مرّتْ هَكذا، تبدُو لي الأشياءُ فقطْ عندَما... عندَما لا أريدُها.

التفتُّ إلى الجانبِ الآخر. بدأ الثّقلُ يظهرُ على جسْمِي مِن

فرْطِ السّباحةِ وحرارةِ الشّمْس. سيلفيا. طبعًا، ستُنهي علاقتَها، وسأستمتعُ خِلالَ الكرنفال! سيكونُ عمُري عشرين سنةً عنْدَ اقترابِ الكرنفال. يجبُ عليّ الاهتمامُ بحياتي وترتيبُ كلِّ شيءٍ، وإلاّ فسوف أسيرُ في اتّجاهِ العزوبيّة. إذا لمْ أتزوّجْ قريبًا، ستغدو حياتي مثل المشرّدين المُعدمين لا سند لهم في هذا العالم ولا حبيبة.

تتأرجَحُ الأرجوحةُ الشّبكيّةُ جيئةً وذهابًا دُونَ إحداثِ أيِّ صريرٍ لأنّني لمْ أهمِلْ تزْييتَ المشَابِك. منَ الأفضلِ إطفاءُ النّور. يدُ أبي على رأسي. لا. أنتَ لنْ تمُوت. عندما أخبرُ تارسيسيو بقصّتي مع سيلفيا سيبقَى مشْدوهًا. عليّ أنْ أنهضَ لأطفئَ النُّور. يا لهُ من نعاسٍ شقِيّ. ولكنّني لنْ أبوحَ بسرِّ أبي حتّى لتارسيسيو. لقدْ بدأ يشْعرُ بأنّني ابنُه فِعلًا. ابتسَمْت. سيلفيا. النّور...

نمتُ.

نوم قليلٌ، ثقيلٌ، صديقٌ، صبِيّ. شِجارٌ عِنْدَ الباب. تدْخُلُ أمّي، وتطفِئُ النّور.

- السّوق.

أغسلُ وجْهي بسرعةٍ، أفرّشُ أسنانِي، أرتدِي ملابسِي على عجلٍ، أبتلعُ كوبًا صغِيرًا منَ القهْوة. بسرعةٍ، وإلّا سيمتلئُ السّوق. لحومٌ: بطّ. خضارٌ: بامية. هُناك في المنزلِ، سَئمُوا أكلَ البامية، ولكنّني أحبّها. ولوْ وصلَ بي الأمرُ حدَّ المبالغةِ، فإنّي مستعدٌّ لقضاء حياتِي كلِّها آكل البامية. أعودُ بسُرْعةٍ، حرِيصًا على اللّحَاقِ بأبي عِنْدَ

عودتِهِ مِنَ القدّاسِ اليومِيِّ، وشُربِ قهوةٍ معهُ علَى الأقلّ. ولكن، حين وصلتُ أخبرتني أمّي بأنّه خرج إلى العمَل.

- لماذا تأخرّتَ كثيرًا اليَوْم.

- وجدتُ السّوقَ مُكتظّة.

لقد كذبتُ. تأخّرتُ لأنّني ذهبتُ إلى الكنيسةِ، وصلّيتُ منْ قلبِي لأجْل أبي.مكتبة .. سُر مَن قرأ

- تحدّثتُما كثيرًا البارِحَة؟

- عنْ زواجِي.

- ماذا؟

- سأهربُ مع الفتاةِ إلى «أورغوايا».

- أنتَ مجنُون!

لمستُ أمّي منْ كتفِها.

- هذا هُراء. سأصيرُ «فرنسيسكانيًّا».

- تناولْ قهوتكَ، هذا أفضل ...

الفصل الرّابع

الحبّ يُسبّب الخطر

- لقد اكتشفَ نينيو كلَّ شيْء.

- هذا رائِع!

- أسِفتُ كثيرًا عليه. لقد سافرَ إلى «سيارا» دُونَ أنْ يتكلّمَ معِي. ولكنّني أعتقدُ أنّه لمْ يكنْ في حاجةٍ إلى الخروجِ هَكذا، وهو يستشيط غضبًا منّي.

- إنّهُ حيوانٌ، انظُري إلينا. لقد أمضينا ثلاثةَ أيّامٍ في الكرنفالِ نرقصُ، ونمرحُ، ونضحكُ وجهًا لوجهٍ، كيفَ لمْ يرَ ذلك، ولمْ ينتبِه؟

- حصلَ كلُّ شيءٍ بسببِكَ. كمْ كانَ طيّبًا!

- كُفّي عنْ هَذا. أنا هُنا. أنتِ لمْ تخسَري شيْئًا.

مشيْنا حوْلَ ساحَةِ «أندريه دي ألبوكيرك» دونَ توَقّف.

- هل نجلسُ في ذلكَ المقْعد؟

- ذلك، لا. المكانُ مظلمٌ جدّا هنا.

وتلهّفتِ الأيادِي للّمْسِ الخَفِيف. ظللتُ أمَرِّرُ يدِي منْ حين إلى آخر فوقَ كتفِها، ولكنها كانت تُزيحها بسرعة كلّما ظهر أحدهم، وتدفعُ كلّ حناني.

- ابقَ هادِئًا يا علكة.

مررنَا أمامَ الكاتدرائيّة، ودَخلْنا ساحةَ «جواو ماريا» حيثُ غطّتْ ظلالُ أشجارِ التّينِ البينجامينيّ المَقاعِدَ المُظلِمة. فبدا كلُّ شيءٍ بمثابةِ دعوةٍ إلى حلم. وكانَ مقدّرًا لسيلفيا أنّ تتّخذُ قراراتِنا كلّها.

- أنا مُتعَبةٌ، هيّا بنا نجلسْ هُناك.

كان مقعدًا خشبيًا جميلًا مُدوّرًا. جلسْنا مُتقاربيْن، ثمّ تَلامَسْنا أكثرَ فأكثر. فبدأ الدّمُ يتدفّقُ بقوّةٍ في عروقنا مدفوعًا بخيولٍ مجنُونة. انزلقتْ يدُها علَى ذِراعِي، وقدّمَ فمُها إليّ نفسَه، وظلّ خوفِي يكبُر كلّما اقتربَ منْ فمِي. كان يمكنُ أنْ تهرب. ولكن ماذا! فهي الّتي وضعتْ شفتيْها على شفتيَّ، وقبّلتنِي القبلةَ الأولى. وهَكذا، دارتِ الدّنيا، واختفتْ عنِ الأنظارِ، وطنّتْ، وحلّقَ البحرُ، وحلّقتِ الرّيحُ، وحلّقَ الجسدُ فِي الفضَاءِ، ونبض الدّمُ فِي الأصْداغِ، واحتضنتِ الأيادِي كلَّ شيْء.

- علينا أنْ نذهبَ، يا علكة!

مشيْنا قليلًا صامتيْن.

- أنت حيوان!

- همم!

- أنتَ مناسبٌ تمامًا بينَ ذِراعيّ.

- لنتحدّثْ عنْ شيءٍ آخر.

- رائِع! لقد تمنّيتَ هذا منذُ أسْبوع!

- لنذهبْ إلى البيت.

كيفَ يُمكِننا الاستمرارُ في المشيِ يدًا بيدٍ فقطْ، بعْدَ كلِّ الّذي حصَل؟ المرأةُ كائنٌ غريبٌ حقًّا. تعرفُ سيلفيا كيفَ توازنُ الأحداثَ جيّدًا، أمّا أنا، فأردتُ أنْ نظلَّ مَعًا، وأنْ نقولَ كلماتٍ حلوةً، ورقيقةً... أوْ أنْ نفكّرَ في أشياءَ مجنونةٍ، وجسمُها بينَ ذراعِيّ، وأنا أحضنه بحنان.

اقتربنا منْ منزِلها. توادَعنا. وكانت مصافحةً باليدِ لا غير.

- أحبّكِ يا صغِيرتي!

- كنْ عاقِلًا يا علكة.

- أجل.

هل ستأتي غدًا؟

- غدًا، بعْدَ الظّهرِ، سأقضّي ثلاثَ ساعاتٍ في السّباحةِ بنهرِ «بوتنجي». فأنا أتدرّبُ على سباقِ القوارِب. سأمرُّ كلَّ يومٍ بعْدَ الظُّهرِ في السّاعةِ نفسِها.

- ستمرّ فعْلًا؟

- سأمرّ.

- هل أنتظرُكَ؟

- أنا أحبّك. مع السّلامة!

السّوقُ، قضاءُ الصّباحِ في الشّاطئِ، غداءٌ طويلٌ أظلُّ مركّزًا فيهِ النّظرَ على أبِي، وبِي خوفٌ دائِم منَ السّر. فقد ظلّ صامتًا، ولا يبدُو أنه سيتكلّم. غفوةٌ قصيرةٌ على الأرِيكة. ثمّ أنظرُ إلى السّاعة. إنّها حواليْ الثّالثة. غادرتُ دون أنْ ينتبِهَ إليّ أحدٌ، خشيةَ أن يطلبُوا منّي فعلَ شيءٍ آخر.

لمحتُ من بعيدٍ وجهَ سيلفيا عنْدَ الباب. لم نتكلّم. غمرتْنِي فرحةُ الشّباب. جاءتْ لتنتظرنِي عند منعطفِ الجدارِ، وكان الجدارُ ممتدًّا حتّى الباب. كان جدارًا إسمنتيًّا. توقّفتُ عند المنحدرِ الأوّل. وتهامسنا بصوتٍ رقيق.

- هل تُحبُّني؟

- همم - همم... وأنتِ؟

- همم - همم.

نظرتُ حولنا. لم أرَ أحدًا. قبّلتُها القبلةَ الأولى. فقفزتْ، ونزلتْ إلى منحدرٍ آخر.

- انظرْ إلى الناسِ، إلى الجيرانِ في الجهةِ المُقابلة...

طاق!

حفرةٌ أخرى. انتبه. طاق! حفرةٌ أخرى. طاق! مرّةً أخرى. ثمّ طاق آخر أطول. وبعدَها سنَجِدُ الباب.

- انتبهْ يا علكة. هُناكَ أناسٌ قادِمون.

كنّا متنكّرَيْنِ، غيرَ مُتلاصقين، نتحدّثُ دونَ كلام. وأحيانًا يمرُّ أحدُ المعارفِ. فيقولُ: «مساء الخير».

- قبلةٌ أخرى فقط.

- ارحلْ، أمّي فِي الدّاخل.

- فقطْ واحدةً، واحدةً، وحِيدَة. الباب.

كانتْ تتكلّمُ بشكلٍ طبيعيٍّ للغايَة.

- هل ستذهبُ للسّباحة؟

- أتدرّبُ على سباقِ القواربِ، سباقِ ألفٍ وخمسمائة مِتر.

بدَتْ مُحادثتنا عاديّةً، ولكنّ نظرات العينين وتقارب الوجهين كانا يقولان شيئًا آخر.

- هل هذا الّذي في يدكَ هو التّبان؟

- نعمْ. هو مِئْزر. انظُري؟

أغلقتُ يدِي، واختفَى التّبان.

- ألا تخجلُ من ارتدائِه؟

حككتُ أنفِي بسخريّة.

- لا.

- أنتَ؟...

-... أحبّ، نعم. وماذا بعد؟...

- أنا أيضًا.

تبادلتْ عيونُنا القُبل. كان عليّ أنْ أذهبَ لأستغلَّ المدّ. وحدَه، النّهرُ الأخضرُ، الشّفافُ، المالحُ، الخفيفُ، يبلّلُ روحي ويقدرُ على فهمِ سببِ عدمِ إحساسِي بذِراعَيّ. فلمْ يصلْ بِي الأمْرُ حدَّ التّعبِ بَعْد. وبعْدَ التّدريبِ مسافةَ ثلاثةِ آلافِ مترٍ تقريبًا، عدتُ على متنِ زوْرقٍ، وفي النّادِي اضطررتُ إلى القفْزِ منْ مستودعِ البضائِع. ولمْ أتذكّر المنزل، عندَ اختفاءِ الشّمسِ، وبدءِ الإحساسِ ببردِ اللّيلِ على البشَرةِ، ذكّرني ضميرِي بالمنزلِ، وواجبِ العشاءِ في السّاعةِ المحدّدةِ، وضرورةِ وضعِ حدٍّ لطيشِ الشّباب، يومًا مّا.

نظرَ أبي إليّ بطريقةٍ مختلفة. لكنّها بدتْ، فوقَ كلِّ شيءٍ، نِظرةً لطيفة. أحيانًا أرفعُ عينيّ، فأراه يتابعُ أدقّ حركاتِي. لقد جلسَ أمامِي خِلالَ العشاءِ، فسعدتُ بتقديمِ الصُّحونِ إليه لأكسبَ ابتسامةً منْه. تحدّثنا بمفردنا للحظاتٍ، فسألته بخوفٍ عنِ اقترابِ موعِدِ العمليّة. قد تُجرى بعد شهرٍ، أو عشرين يومًا. وكنتُ أخشى منْ إثارةِ أعصابِه، وأعدُّ الأيّامَ، وأكبحُها كيْ لا تمرّ.

نهضتْ أختي الكبْرى لتأخذَ كوبًا منَ الماءِ منَ الثّلّاجةِ، وعند عودتِها وقفتْ أمامَ الجميع.

- انظرُوا إلى هَذا فقط.

أمسكتْ بتُبّانِ السّباحةِ بيْن أصابِعها.

- يا لها من قلّةِ حيَاء.

لم أنتبه لعودتها السّريعة والمبكّرة إلى البيت، فنسيتُ تبّاني فوقَ جدارِ الشُّرفَة.

نهضتُ بسرعةٍ، وانتزعتُ التبّانَ بوحشيةٍ منْ بين يديْها.

- أعطني هذا، يا....

- يا ماذا؟

كظمتُ غَيْظِي وغضَبي. يا ماذا؟ يا بقرة، يا متسكّعة، يا بعرةً جافّة! مسكتنِي أمّي منْ ذراعي، وهدّأتْ منْ روْعي. فعدتُ إلى مكاني. يومًا مّا سأفعلُ شيئًا ضدّ تلكَ الفتاة.

- الجميعُ هنا في «ناتال» يتحدّثون عن فسادِ أخلاقِك! وعن تبّانك هذا، وعن علاقتكَ الوسخةِ تلك القذِرة!

- اخرَسي!

ولكنّها ظلّت تُتمتم. تراءى لي أنّ والديَّ لمْ يرغبا في رؤيةِ ما حدَث، ولكنّ ما لفتَ انتباهي هو أنْ يتحدّثَ الجميعُ عن ذلك. فأنا منْ عائلةٍ كاثوليكيّة. أحسستُ بجُبني. فلمْ أستطعْ فعلَ أيِّ شيءٍ،

ولا قولَ أيِّ شيْء. جاءتني رغبةٌ في أن أضعَ زجاجةَ الماءِ في علبتِها. الزّجاج، الثّلّاجة، المكواة، الأريكة. أنْ أترُكَ تلكَ الشّيطانةَ تنزِف. ولكنّي تذكّرتُ أبي، والسّرَّ، ومحاولةَ عدمِ معارضتِه في تلكَ الأيّامِ الأخيرة. فامتلأتْ عينايَ بالدّموعِ غَيْظًا. وفضّلتُ أنْ أنسَحِب. دفعتُ الكرسيّ بعنفٍ، وصعدتُ الدّرجاتِ بسرعةٍ لأتنفّسَ في الشّرفة. سأرتكبُ جريمةً يومًا مّا. سأقتلُها خنقًا. ثمّ سيأتِي رجّال الدّين ويقذفون من أفواههم طاعونًا من الكلمات، ينطقونهُ بشفاهِهم الرّخوةِ منْ كثرةِ إزعاجِهم الرّبّ، وبقلوبِهم الثّقيلةِ، دونَ ألفةٍ أو غرورٍ، مُمسكينَ بمرشِّ الماءِ المُقدّس... ويقولون:

إنّ ما كانت تحتاجُ إليه فعلًا هو رَجُل.

وصلَ أبي إلى الشّرفةِ دون أنْ يُحدِثَ أيَّ ضَجِيج. فنهضتُ.

- أنا جالسٌ على كرسيّك.

- يمكنكَ البقَاء.

انحنَى على الدرابزين، وظلَّ يدخّنُ بصمْت.

- سأخرج.

- إلى أينَ ستذهب؟

- هناكَ سفينةٌ فِي الميناء. سأبدأُ العمل عند السّاعة العاشِرة. وربّما أستمرُّ حتّى الصّباح.

- لم تحِنِ الثّامنةُ بعد. لماذا لا ترتاحُ قليلًا؟

- لا، يا أبي. لستُ متعبًا.

- تحدّثْ قليلًا معِي.

وقفتُ إلى جانِبه. وقبِلتُ السّيجارةَ الّتي عرضَها عليّ في صمتٍ،.

- هل العملُ شاقّ؟

- ليس كثيرًا. غير أنّ العيونَ تتعبُ بعد منتصفِ اللّيل، وأضواءُ الميناءِ تزدادُ اضطرابًا. كما أنّ ضجيجَ الرّافعةِ، والانتباهَ الشّديدَ يجعلُ المرءَ يتثاءب. يجبُ ألاّ نخطِئ. هناك مراقبٌ على متنِ السّفينةِ يعملُ في الوقتِ نفسِه. فإن حصلَ خطأٌ، يعيدُ معاينةَ كلِّ شيءٍ منَ البِداية.

- هذا عملٌ فظِيع!

- لا يزعِجني القيامُ بذلك كلَّ نهارٍ أو كلَّ ليلة. ولكنْ، لا يمكنُ الحصولُ إلّا على ثلاثِ سفنٍ فِي الشّهر أو أربعٍ.

- هل أنتَ نادمٌ على تخلّيكَ عنِ الدّراسة؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أدري. من الأفضلِ ألّا نتحدّثَ في هذا الموضوعِ الآن.

نظرَ إلى داخلِ رُوحي.

- لستَ سعيدًا في بيتي، أليس كذلك؟

حككتُ رأسي دون أن أعرفَ الإجابة. دخّنتُ طويلًا. لماذا لا أصبحُ شجرةَ جوزِ هندٍ مثل تلك الّتي أمامَ المنزلِ تتمايلُ ليلًا مع هبوبِ النّسائم؟ على الأقلّ، لنْ أكونَ في حاجةٍ إلى الإجابةِ عن أيِّ سؤال. أقصى ما يمكن أن يحدثَ لي هو أن أتحوّلَ إلى لبِّ نخيل. فأنا لا أحِبُّ الكذِبَ، ولا أحِبُّ أيضًا أنْ أجرَحَهُ في هذِه الأيّام العصِيبة. آه! الربُّ، ربّاه! آمل ألاّ يموتَ، وأنا أعدُكَ بالقيامِ بكلِّ شيء. سأتوقّفُ عن السّباحةِ في سباقِ القواربِ إنْ لزِم الأمر. ولكنْ، إن حصلَ له مكروهٌ...

- ليس بسببكَ يا أبي. تأكّدْ من ذلك، حتّى وإن تشاجَرنا بحدّةٍ، وحتّى عندما تدفعُني أمّي لأعتذرَ منكَ مُكرهًا... هناكَ شيءٌ مّا خاطئٌ في داخِلي ليْسَ على ما يُرام... أنا سيّءٌ حقًّا.

- ستغادرُ قريبًا؟

ضغطتُ على ذراعِه بقوّة.

- كيف عرفتَ ذلك؟

- أنا أنظر إليكَ مرّاتٍ كثيرةً، وأراقبُ ما يحدثُ لك. ليس ممكنًا لأيِّ شخصٍ أنْ يتحمّل وحدَه كلَّ هذه الحياةِ، وكلّ هذا القلق. «ناتال» مدينةٌ صغيرةٌ، وقلقك هذا يحتاجُ إلى عالمٍ أوسع.

- هل تحدّثتَ مع أمّي حول؟ ...

أشعلَ سيجارةً أخرى.

- لا تدخّنْ كثيرًا. هذه السّيجارةُ الثّالثةُ خلال دقِيقةٍ واحدة.

رأيتُ السّيجارةَ تتطايرُ بيْنَ أصابعِه، والدُّخانُ ينزلقُ أرضًا.

- كنتُ أتهيّأ لإخبارك هذا الأسبوع. نظرْتُ إلى سَاعتِي. ففهِمَ العجُوزُ حَرَكتِي.

- هي؟

- همم ـ همم.

- أودُّ أنْ أتحَدّثَ إليكَ بخُصُوصِ هذا، يا بنيّ.

- لنْ نتشَاجَر. أليْس كذلك؟ لا أريدُ أن يحدثَ ذلك اليومَ يا أبي.

صمتَ. فألححتُ، وإلّا سأبقى نادِمًا بجنون.

- تحدّثْ على أيِّ حال.

- عنْ هذِه التّعليقاتِ الّتي سمعتُها، والشّكاوى، والادّعاءات.

- كلُّ ذلك بسببِ علاقةٍ عاطفيّة. آه! هذا بسبب شجارِ تلك...

- لا تتحدَّثْ هَكذا عنْ أختك.

- كانتْ حياتِي كلُّها مذْ كنتُ صغيرًا هكذا. فتلكَ الطّاعونُ دبّرتْ ضدّي مكائدَ، ونمائِمَ، جاعلةً طفولتِي تعيسة. لمْ

أستطعْ قَطُّ السّباحةَ مختبئًا، ولا أنْ أتّخذَ لي صاحبة. تمامًا! أهي نارُ الجحيمِ موقدَة؟ والآنَ مشكلةُ تبّاني. لو كنتُ سمينًا، ممتلئَ البطنِ، لما ارتديتُ تبّانا كهذا طبعًا، ولكنّه جيّد للسّباحةِ. سأطوّلُ تبّاني لو قطعتْ نصفَ لسانِها ...

- لماذا تتشاجرُ كثيرًا مع أختك؟ إنّ أختكَ وحيدةٌ فعلًا. أنت لا تأخذُها معكَ إلى السّينما، ولا إلى نزهةٍ، لم يحصلْ ذلكَ مرّةً واحدةً. في أيّامِ طفولتي كانت أخواتي بمثابةِ صديقاتي! ...

- لا أستطيعُ يا أبي. لا يمكنُ أن أكذبَ عليك. هذا يفوقُ قدرتي على التحمّلِ، أنا أكرهُها، أكرهُها، أكرهُها... لماذا جاءت اليومَ للتّشاجرِ معي مرّةً أخرى؟

- لم تكنِ السّبب؟ ألمْ يتمَّ القبضُ عليكَ يومَ الأحدِ في الشّاطئ؟

- نعم. حصل.

عاد المشهدُ إلى ذاكرَتي. احتشدَ النّاسُ يوم الأحدِ في شاطئِ الرّمالِ السّوداء. فجاءَ المندوبُ نحوي. ولمْ يكن لطيفًا. كان بدينًا، يلبس تبّان سباحةٍ يصلُ إلى ركبتيْه. وقال لي بحزمٍ وهو يضع يديه على خصره:

- لا يمكنكَ ارتداءُ هذه الملابسِ في الشّاطئ!

جلستُ على الرّمال، بينما ظلّ الأصدقاءُ المحيطون بِي يستمِعون إلى المُناقشة.

- لماذا؟

- لأنّكَ شبهُ عار. وهذا شاطئٌ عائِليّ. والسّباحة في تبّانٍ أبيضَ ممنُوعة.

- هل هذا أبيض؟ ألا تستطيعُ التّمييزَ بين الأبيضِ والقشدِيّ؟

- أبيضُ أو قشديٌّ، لا يهمّ. عليكَ أنْ تغادرَ الشّاطئَ الآن، وإلاّ سأتّصلُ بالجنود.

ضحكتُ في وجهِه. ورغبتُ في أنْ أنطحَ بطنَهُ حتّى أراهُ ملقًى أرضًا وهو يرتجف. لقد نفختِ الشّياطينُ في نيرانِي.

- اتّصلْ بهم. لنْ أخرجَ منْ هُنا.

جرى العجوزُ البدينُ نحو الطّريقِ، ونادى اثنيْن منْ جنودِ الدّوريّة.

- زاي، اجرِ.

- دعهُ يقتربُ أكثر.

عادَ الرّجلُ السّمينُ مشيرًا بإصبعِه إليّ. فقلتُ لأحدِ أصدقائي:

- خذْ بنطالي إلى شاطئِ «دو مايو».

وعندما اقتربَ الجنودُ منّي، نهضتُ، وركضتُ نحو البحرِ بسرعةٍ كبيرةٍ، ثمّ قفزتُ سريعًا في الماء. غير أنّي سبحتُ قليلًا، ثمّ عدت.

- تعالَ واقبضْ عليّ!

فصرخَ المندُوب:

- سأنتظركَ، أيّها الوغد!

- هههه! تعالَ، وأمسكْ بي، أيّتها السّاحرة. يا قاربَ الطّوّافة.

وانطلقتُ في السّباحةِ في البحرِ، بعيدًا جدًّا، ثمّ انعطفتُ في اتّجاهِ «برايا دو مايو». فساعدني المدُّ. ماذا تعنِي ثلاثةُ كيلومتراتٍ أخرى فِي تدْريبي؟ ...

- هل تعتقدُ أنّ ما حدثَ جيّد؟

- لا. ولكنْ، لا يهمّ... أعدُكَ ألّا أذهبَ مرةً أخرى في تبّانٍ أبيض. هل اشتكتْ لك الشّرطةُ، أليْس كذلك؟

- تحدّثَ إليّ رئيسُ الشّرطةِ في القدّاسِ منذُ أيّام.

وكانَ هو أيضًا من رعيّة ماريانا. إلى هذا الحّد لا شيء مهمّ. يا لها من ليلةٍ أخرى...

- أعرفُ، يا أبي.

حدثَ ذلك في ظلمةِ جذعِ شجرةِ التّينِ البينجامينيّ، خلفَ الكاتدرائيّة. كنتُ أنا وسيلفيا. وجرتْ بيننا المحادثةُ نفسُها كالعادةِ: «هل تحبّني؟ - طبعًا، وأنتِ؟ - آه، يا علكة، لا داعي للسّؤال، ما الحاجةُ إلى هذا؟»، ثمّ تبدأ القبلُ، ويتلاصقُ الوجهان، وتكتشفُ

الأيادِي مسالكَ، وتُعْمي السّعادةُ كلّ شيْء. كمْ كان سيكون رائِعًا لوْ أنّ هذا العالَمَ غير موجود. فقط أنا وهي. قبلٌ قصيرةٌ، حارّةٌ، رطبةٌ، خالدةٌ... «-لو تتخلّى عنّي يومًا مّا سأموت. - وأنا أيضًا...- ولكنْ، سمعتُ أنّك غازلتَ إيفونيس أمس!... - هي الّتي غازلتني يا حبيبتي. لا يجبُ أن نتشاجر. لماذا تهدرين الوقت؟ ...» وتزدادُ القُبل. ليس عندي نقودٌ للسّينما، ولذا عليّ البحثُ عن زوايا مظلمةٍ، مظلمةٍ جدًّا، حتّى لا يستطيعَ أخوها اكتشافَنَا... وفجأةً ظهر وجهٌ أمامنا.

- هذه العلاقةُ تخالفُ كثيرًا آدابَ الحشمة!

إنّهُ رئيسُ رعيّةِ ماريانا.

نهضتُ غاضبًا.

- لا دخلَ لأحدٍ فينا. تصبح على خير.

كان الرّجلُ يعرفني، وبما أنّهُ صديقُ أبي، فالأمرُ واضحٌ. لقد حيكتِ القصّةُ، وانتهى الأمْر. عُدْنا للمداعَبة. اللّعنةُ، فنحنُ لم نفتكْ شيئًا منْ أيِّ شخص. كلُّ منْ ينظرُ إلينا، يديرُ وجهَه.

- أحمق، أليس حيوانًا؟

ماذا يهمُّ العالمُ والآخرون فينا. علينا ألاّ نهدر الوقت. بعد قليلٍ، سيحينُ موعدُ رجوعِ سيلفيا إلى منزلِها. وقد جاء تأكيدُها على الإجابةِ في شكلِ قُبْلة...

- هل أخبرُكَ بكلِّ شيء؟

- أجل. أخبِرني. كم عمرُ هذه الفتاة؟

- ستبلغُ سبعَ عشْرةَ سنة.

- هذا لا يجوز. أنتما بصددِ القيامِ بفعلٍ مشِين.

- نحن سنتزوّج. أنا رجلٌ بالفعل.

- بِمَ ستتزوّج؟ كيف؟ بأيّة طريقة؟ ليس لديك حتّى وظيفةٌ.

خفضتُ رأسِي خائِبًا مُنتكِسًا. كم كانَ العالمُ شرّيرًا، ووحشيًّا، وخائنًا، وبلا ضمِير. ولكنّني خسِرتُ حُججي. هذا ما يحصلُ في مدينةٍ صغِيرة. «مدينةٌ صغيرةٌ» يقابلها «لسانٌ طويل».

- اذهبِ الآن، وإلّا ستصلُ متأخّرًا. سنتحدّث لاحقًا بهدوءٍ أكثر.

كنت حزينًا، وعرفتُ أنّ حزني سيكبر خلال اللّيل، وأنا أتحقّقُ من الحمولةِ. اللّعنة، تبًّا!

- لن أراكَ ثانيةً اليوم. لكَ البركة...

الفصل الخامس

الوعد

يا علكة، هلْ تشاهدُ الفيلم!

جلسنا في قاعةِ سينما «رويال» القديمةِ، ونحنُ نعُدّ دقائقَ العرْض. إنّها قاعةُ سينما قديمةٌ، تعرضُ النّصف الأوّل من الفيلم ثمّ تُضاء فجأة قبل مواصلة عرض النّصف الثّاني. لذلك يبحثُ جميعُ الأزواجِ عن ملجأٍ، ويأخذونَ الوضعَ المناسبَ لهم، ويظلّونَ هَكذا.

داعبتْ سيلفيا وجهي. فالتصقتْ قطعةُ الحلوى بحلقِي.

- يا علكة، أنتَ تبْكي! ماذا حدَث؟

حاولتْ بلا جدْوى حِمَايتِي، وعانقتني كثيرًا.

- لنخرج؟

- أجل.

سحبتْ سيلفيا يدَ أختِها الصّغيرةِ الّتي ترافقنا رغمَ احتجاجِها. إذْ يأتي دائِمًا معنا الأخُ الصّغيرُ، أو الأختُ الصّغرى. فإذا جاءَ دورُ

الأختِ، يمرُّ كلُّ شيءٍ على ما يُرام، لأنّ المسكينةَ تشردُ في شاشةِ العرضِ، وتترُكنا بسَلام. أمّا الأخ فإنّهُ يظلُّ يراقبُ أدقَّ تفاصيلِ حركاتنا. فكنّا نتوخّى الحذرَ المُطلق. النتيجةُ: صرنا نحضرُ كلَّ أفلامِ الكوبوي لأنَّ الصّبيَّ ينسانا بسببَها.

مشينا ببطء. وقد تكدّرَ وجهُها الصّغيرُ، وانتظرَتْ منّي أنْ أتكلّم. وفي النّهايةِ سألتني بحنانٍ كبيرٍ:

- هل أبوكَ على ما يُرام؟

- همم... همم.

مسكتْ بذراعِي، ومرّرتْ عليه يدَها وكأنّها إسفنجةُ إزالةِ الغبارِ عن الأرُزّ.

- قد يذهبُ إلى المستشفى في أيّةِ ساعةٍ.

- سأصَلّي منْ أجله.

فكّرتُ في سرّي. إنّ كلَّ شيءٍ مختلف. هي «ستصلّي من أجله». هذا معارضٌ تمامًا للتّعليقاتِ السّيّئةِ الّتي صبّوها علينا، وخاصّة ضدّها.

- إنّها منحطّة!

- بهذا التّصرّفِ ستصير...

- عملتْ في التّجارةِ، وعندما هبّتِ الرّياحُ، اتّضحَ أنّها لا تلبسُ سروالًا تحتَ فستانِها.

ولكنّ استياءَ أبي بدا مختلفًا. لا أريدُ التّفكيرَ في ذلك. لماذا على الجميعِ التّدخُّلُ والإزعاج؟ في النّهاية، نحن لسنا صغارًا. سيلفيا، امرأةٌ، وعمرها تقريبًا سبعَ عشرةَ سنةً، وأنا رجلٌ أقتربُ من العشرين. من الأفضلِ لو أنّي ولدتُ في العصر الوسيط. لقد كان عمر روميو ثماني عشرة سنةً، وعمر جولييت أربعَ عشْرة فقط. اللّعنة! تبًّا!

- أريدُ العودةَ إلى المنزلِ، فأبي مصابٌ بحمًّى شديدة.

- نعم، لنذهب.

لقد جعلتْ تلك الحمّى الّتي أصابتهُ حالته غرِيبة. إذ بدا وجهُه المُلتَحي أحْمَر، أحْمَر. وبلغت حرارتُه أربعين درجةً. بل إنّ الأمر وصل بهُ إلى الهذيانِ والتّعليقِ على أشياءَ غرِيبة. ولكِنّهُ فِي اليوم التّالي، أخذَ حمّامًا بارِدًا، واسْتعادَ ابتسَامتَه وبهْجتَه. فلمْ يصدّقْ أحدٌ ما مرّ بهِ في اليومِ السّابق.

جرَى نحو القدّاسِ، وشربَ قهوتَهُ المعتادةَ، وتوجّهَ بهدوءٍ إلى مستشفى الأمراضِ الذّهنيّةِ الذي يعملُ مُديرًا به. كنتُ حين أمرُّ ظهرًا عبرَ «ريبيرا»، في شارعِ «الدّكتور باراتا»، حيث كانتْ عيادتُه، أراه يدخّنُ في الشّرفةِ، قبلَ وصولِ المرضى، ويأخذُ قليلًا مِنَ الرّاحةِ صُحبةَ أطبّاء آخرين مجُاوِرين. في ذلكَ الوقتِ، كانت الطّاقيّةُ البيضاءُ تغطّي شعرهُ الأسود. وكان يكلّمني من هناك.

- إلى أين تذهب؟

أُرِيه التبّان.

-سأذهب للتدرّبِ في المركزِ البحريّ استعدادًا لسباق القوارب.

فيضُمّ قَبْضَتَهُ يدَه. ثُمّ يبتسم. فأفهمُ الكلمةَ منْ خلالِ ابتسامتِه.

- متشرّد.

تراءتْ أمّي متوتّرةً وهي تعطيهِ حقْنة. ووقفتُ صامتًا بالقربِ منهُ، أنتظرُ بقلقٍ تحسّنه، إلى أنْ عادَ لونُه إلى طبيعتِهِ ثمّ بدأ الأنينُ في التّلاشي، واستعاد التنفّسُ إيقاعَه المُعتاد. حينئذٍ فتح عينيهِ، وبدأ ينظرُ إلينا ببطء.

- كأسًا من الماء.

غرِقتْ بيجامته في العَرق. استلقى على الأرجوحةِ الشّبكيّة لتكون مُساعَدَتُه في تبدِيلها أسْهل. ثمّ نام اللّيلةَ كلَّها بهدُوء.

كمْ أصبحَ حنونًا معي خِلالَ فترةِ مرضِه.

- زيزينيو، أعطِني هذا!

- ابقَ هنا.

- هل ستذهب للسّباحةِ اليوم؟

أمسكَ بيدِي، ومرّر أصابعه المفتوحةَ قليلًا فوقها. كم كنتُ أنانيًّا حين تمنّيتُ أنْ يظلَّ مريضًا حتّى أنعمَ بمعاملتِه بذلكَ الشّكل. والحقيقةُ أنّني لم أتمنَّ لهُ شيئًا خَطِرًا.

ولكن، لا. في تلك اللّيلةِ كان مريضًا جدًّا. جاءَ الأطبّاء. خفت

أن أسألهم. المستشفى، المستشفى الملعون. دفعونِي خارجَ الغُرفة. فظللتُ أتمشّى بالقربِ منها، وأراقبُ كلَّ شيْء. أردتُ المساعدةَ بأيِّ شيْء. دخلوا إلى الحمّام، وخرجوا، وقطراتُ الدّواء تتمايلُ في المسابرِ، وبخارُها يتصاعد. عادُوا من جديدٍ، تهامسوا على عادةِ أسرارِ المهنة.

حككتُ رأسِي في حيرةٍ منْ أمري. وتضاربتِ السّاعةُ في ذهني. لا شيءَ له معنًى في ساعةِ الحائِط. فقد قضتْ عقاربُ الدّقائقِ على الثّواني بقسوة.

لم يتحسّن إلاّ معَ اقترابِ الصّبح. فانسحبَ الأطبّاءُ من شدّةِ التّعب. أوصلتُهم إلى الباب. كانتِ المدينةُ في الخارجِ نائمةً، وثمّة ديكٌ في البعيد، يريدُ إيقاظَ النّهار.

وبينما أصعدُ الدّرجَ قالتْ لي أختي إنّه يريدُ رؤيتي. كانُوا قد وضعُوه على سريرِ أمّي. بدا بعضُ الشّحوبِ على وجهه، وظلّ تنفّسُه يحدثُ أزيزًا خفِيفًا. ضربَ بيدِه على السّرِيرِ، وطلبَ منّي الجلوس.

- هل تحسّنتَ يا أبي؟

سألته بصوتٍ منخفضٍ.

- أنا بخير. كم السّاعةُ الآن؟

- حوالَيْ الثالثة والنّصف.

- عليك أن تنامَ، وإلّا سيفوتكَ التّدرّبُ غدًا.

أغمضَ عينيه في نعاسٍ هادئ. وتدلّى رأسُهُ غارقًا في النّوم. انتظرتُ قليلًا، ثمّ نهضتُ دونَ أن أُحدث أيّ ضجيج.

لا. لنْ أذهب. لا. لنْ أذهب. لم أقلْ إنّني سأذهَب؟ ألستَ قريبًا؟ تَحلَّ بالشّجاعةِ، يا زاي.

تردّدتُ في السّاحةِ الصّغيرةِ، ونظرتُ إلى كنيسةِ «بون جيسوس».

- اذهب يا حيوان! ماذا تنتظر؟ لا يوجدُ أحدٌ هنا في مثلِ هذِه السّاعة.

استطلعتُ الجوانبَ كلّها. اللّعنة على شيطانِ الغرور! وما المشكلةُ لو أنّ هُناك ناسًا؟ لا أحدَ يعرفُ ما الّذي ستقوله. الرّبّ وحده يعلم. أجل، المشكلةُ هي التّالية: إذا كان لا يسمعُني إلّا الرّبّ، فلماذا لا أتكلّمُ هنا بالذّات؟ يدفعني العقلُ إلى ما هو أبعد. «المهمّة» هي أنّك وعدتَ بالمجيءِ إلى الكنيسةِ، والحديثِ فيها.

تقدّمتُ خطوتيْن. ونظرتُ إلى السّاعةِ: الثّالثة ظهرًا. ساعةُ التّدرّب. توم - توم - توم، تتسارعُ دقّاتُ القلب. اذهب. لا. لا تذهب؟ الأبوابُ الرئيسيّةُ مُغلقة. هي فقطْ نصفُ مفتوحةٍ من جانبٍ واحد. حوضُ المياهِ أخضر. صندوقُ الصّدقاتِ الّذي يبدُو أنّه لمْ يمتلئْ يومًا. توم ـ توم ـ توم. القلبُ يدقّ. لا يوجدُ أحد. مسحتُ عرقَ جبيني. أحدثتْ خطواتي وقعًا خفيفًا. خلتِ المقاعدُ من الطّرفِ إلى الطّرف مرتاحةً من رُكبِ المُصلّين. وظهرتِ المذابحُ

جانبًا. وحدها خطواتي كانت تُسمع. الشّموعُ مضيئةٌ، تصعدُ نارُها مستقيمةً دون تعرّضٍ لهبوبِ أيّةِ رياح. تتساقطُ دموعُ الشّمعِ على جوانبِ الشّمعدانات. توقّفتُ عند المذبحِ الرّئيسيّ تقريبًا. نظرتُ بسرعةٍ إلى الخلف. لم يدخلْ أحد. جال نظري حول المذابحِ الجانبيّةِ لأتأكّدَ من عدمِ وجودِ قدّيسين يتجسّسونَ عليّ. لا شيء. كلّ شيءٍ هادئٌ في سَلام. كانت ساعة القيلولة. وقفتُ تمامًا أمامَ المذبحِ الرّئيسيّ. كانَ النّورُ الأحمرُ لبيتِ الرّبّ مُضِيئًا. الرّكوع. جلستُ على المقعد. فاحتْ رائحةُ عزلةِ الرّبِّ من الأزهارِ والشّموع. بدتْ رائحةً مختلفةً، وفكّرتُ أنّني لا يمكنني شمُّها وإلّا ستفقد قيمتها...

«لا أحد يخسرُ اليوم! إنّه يومُنا!».

النّاسُ في كُلِّ مَكَانٍ. مهرجانٌ من الابتسامات. النّوادي مزدحمةٌ والمركزُ البحريّ كذلك. جاءَ متدرّبو المدرسة البحريّة. كانوا شبابًا أقوياء في السّباحة. أناس يتحدّثون. جلبة. الأيادي تتحسّس البرد. زورقٌ شراعيّ في النّهر على أُهبة الاستعدادِ للانطلاق. قُمصانٌ حمراء وسوداء. قمصانٌ أخرى بيضاءُ وسوداء. زوارقُ تصل تباعًا. وصل الحَكَم. تحدّد خطُّ الانطلاق. روح التّنافس تملأ الفضاء. والزّحمة في كلّ مكانٍ، على ضفاف نهر بوتنجي، وعند رصيف الميناء، حتّى الألعابُ الناريّة كانت حاضرة. مجاديفُ تضرب الماء، صدورٌ تلهث، أيادٍ تصفّق. هيّا إلى الأمام! هناك خطّ الوصول، زووم ، فوووم، بلق بلق. بركانُ صرخاتٍ لتحيّة المنتصرين.

سبّاحون ينتظرون بدايةَ السّباق. القُوّة في الصّدر، في التّنافس، في الصّلابة. بعد كُلِّ سباقٍ للزّوارقِ تبدأ جولةُ تنافسٍ بين السبّاحين. كنّا نتحدّث في غرفةِ تبديلِ الملابس، أبلُغ منحدرَ النّادي فيطلبون منّي الجلوسَ لأخذِ قسطٍ من الرّاحة، واسترجاع الأنفاس. يُدلّكون فخذيّ. ويقدّمون لي النّصائح لكيفيّة استعمال الأقدام. فقَطْعُ ألفٍ و خمسمائة مترٍ من التّجذيف ليس سهلًا مثل تناولِ حساء. استلقيتُ على طول المقعد، واضعًا يديّ على رأسي. أغمضتُ عينيّ. فتناهَتْ إلى سمعي أصواتُ صراخٍ وألعاب ناريّة وموسيقى. أجواء مجنونة. كانوا يتوقّعون منّي كلّ شيء. أنا في المقدّمة بفارقِ مائةِ متر. أهمّ شيء هو تحمّل الإيقاع. بعد ذلك خرجتُ من الماء. جلستُ، أخذتُ نفَسًا عميقًا وأنا شبهُ عارٍ، كان تبّاني القصير جدًّا فضيحة، لكن من كان يهمّه أمرُ تبّاني؟ إذا فزتُ، سيسمحون لي بالرّكض بلا ملابس. كان جسمي يزداد جمالًا ورشاقةً، وكان لونُه الذهبيّ يزيدُ في جاذبيّته ويُبرز قُوّته. أدفع الزَّوْرَق إلى جانب المنافسين مستعدًّا للبداية. انفُخْ صدرَك يا زاي. ستفتخر بك سيلفيا لاحقًا في المساء. لا مزيد من التّفكير. ركّز فقط على الذّراع والسّاق.انظُرْ إلى اليمين. انظُرْ إلى اليسار. قوّة، عزيمة وصدر قويّ. الجسم المرتمي في الماء، ينزلق. كلّ الأطراف تُفكّر في أمرٍ واحدٍ: الفوز. وعندئذٍ ستُتوّج جهودُ التّدريب الكثيرة تتويجًا مضاعَفًا. وصلت إلى النّهاية مُصابًا بدوار، شبهَ ميّتٍ، غير مدرك أنّ الأمر قد انتهى. أسقط في القارب، فاتحًا ذراعيّ. أريد التقاط أنفاسي. كلُّ ذلك كان يحدث وسط

هتافات أعضاء النّادي. كنتُ منهارًا و أصَمَّ من كثرة ما سمعتُ من الصُّراخ... لا يمكن تمنّي نهايةٍ أجملَ من تلك ...

- هذا ما أريدُ أن أخبركَ به، أيّها الرّبّ؛ أن أتركَ كلّ شيء. عيناي جافّتان. يمكنكَ أنْ تراهُما. لنْ أذهَبَ للسّباحة. هذا وعد. هل ستساعدُه في العمليّةِ الجراحيّة. هل فهِمْت؟

كنتُ متواضِعًا، فتمتمتُ بين شفتيّ.

- أعرفُ أنّ لديك خططكَ، ولكنْ، أرجو أن تعدّلها قليلا. بالنّسبة إلى الآخرين، فإنّي سأصلُ متراخ. سيصابُ ناديّ بخيبةِ أملٍ كبيرة. سأكذبُ، وأدّعي أنّ الطبيبَ طلبَ مِنّي التوقّفَ عنِ السّباحةِ بسببِ مشكلةٍ في القلب. هل تعتقدُ أنّ هذا لا يؤثّرُ فيهم؟

ارتجفتْ أصابعِي وأنا أسحبُ العلبةَ الورقيّةَ البيضاءَ الصّغِيرة. دحرجتُ التبّان الملفوفَ فِي يدي. كان ذلك أفضلَ لكيْ لا أشعُرَ بالأسف. يمكنكَ رؤيةُ عينيّ، وأنتَ تعلمُ أنّ نشوتي ذهبَتْ أدراج الرّياح. قرأتُ ما هو مكتوبٌ فوقَ الورقةِ: «وعدٌ. رجاءً عدمُ الفتح. لطفًا وضعُه غدًا في حاويةِ النّفاياتِ دُون فتحِه».

غادرتُ مطأطِئَ الرّأس. أعقابُ السّجائرِ الّتي سيجمعونها لنْ تكشِفَ السّرَّ أبدًا. مشيتُ نحوَ الشّمْسِ، ولكنّ شيئًا مّا ماتَ في روحي. دمٌ غيرُ مرئيٍّ ظلّ يقطرُ على المذبحِ الرّئيسِيّ.

عددتُ الخطوات...أربعٌ وخمسون، خمسٌ وخمسون...مائةٌ واثنتان وعشرون... ألفٌ وثلاثُ مائةٍ وثمان وثلاثون خطوة... هُناك عبرَ رواقِ القاعةِ، وحتّى آخره، وإلى هُنا، مرّةً أخرى، خمسون ألف مرّة. مشيتُ جيئةً وذهابًا أمام غُرفَةِ العَمَليّاتِ، والوجُوهُ تتنَقّلُ خلْفَ الزُّجاج. لا شيء. لم تنتهِ بعْد. ظلّتْ أمّي تُصَلّي وتبْكِي أكثرَ ممّا بكتْ فِي صَلاةِ الكنيسَة. ظُهرًا، بردَتْ يداي، وهاجمتنِي الرَّغبةُ فِي التّدخِين. لم تعدْ قدماي تتحمّلان، كانتا تؤلمَانني.

فُتِح بابُ غرفةِ العَمَليّات. خرجَ طبيب. نزعَ طاقيّته. مسحَ بكفِّه العرقَ علَى جبِينه.

- يا دكتور، هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟

ابتسمَ بهدوء. فخفّف ذلك منْ شجنِي.

- إنّهم على وشكِ الانتهاء. ثمّ سيأخذونَه إلى الغُرفة.

هرعتُ مُسْرعًا لأخبرَ أمّي.

- من الأفضلِ أنْ تظلّي هُنا. لقد مرَّ كلُّ شيءٍ بِسلام. وعندما يأخذونَه هُناك إلى الغرفةِ سآتِي لأصطحبكِ إليه.

دفعوا العربةَ فِي المَمرّ. ظهر وجهُهُ شاحبًا، وفمُه شِبْهَ مَفتُوحٍ، وكان تنفّسُّه يتِمُّ بصُعوبة. غزتْ رائِحةُ الأثيرِ كلّ شيْء. وظلّ قلبي يردّدُ: احذَروا، يا جماعة، احذَروا. لا بدَّ منْ عنايةٍ أكبر. أمسِكُوا الجسْمَ برفْق. انتبْهوا إلى الوسادة.

ثم بدأتِ الأنّةُ الأولى، وتلتْها أخرى. تعثّرتْ قدمايَ، نعم تعثّرتَا، وتصبّبَ العرقُ بلا توقّفٍ مِنْ جبيني.

قضَيْنا اللّيلةَ فِي أسًى. كلّ شيءٍ تمَّ على ما يُرام. ولكنْ، هلْ مرَّ بسَلامٍ حقًّا؟ وماذا لو كانَ الأطبّاءُ يخدعُونني؟ سأقتلُ أحدَهم بإبرةِ الحقنِ، أغرزُها ببطءٍ في قلبه.

بزغَ فجرُ اليومِ على عينيْ أمّي المرهقتينِ، وكفّتْ عصبيّتي لتترُكَ محلَّها للشّجاعَة. فدائِمًا ما يمحُو ضوءُ النّهار أهوالَ الظّلامِ، ويدفعُها بعيدًا.

ظلّ أبِي مُسَجّى تمامًا طوال يومين، ثمّ تحسّنت حالتُه، وهكذا تأكّدتُ من أنّ الربّ يحب تبّاني مادمتُ قد بلغتُ العشرين من العمر ولم يمت أبي.

وكما جعلَ الرّبّ الزّمنَ يُنسِي كلَّ شيْء، مرّتِ الأيّامُ خفيفة. وبدأ أبي يأكلُ ويتكلّم. ومع ذلك ظلّ شاحِبًا. فبقيتُ قدْرَ المُستطاعِ إلى جانِبِه.

– زاي!

– همم.

– أتلهّفُ بشدّةٍ إلى العودةِ إلى المنْزِل. فهنا يوجدُ ناموسٌ كثير.

لقد دفعتُها بصَبْر.

– الأسوأُ أنّها تخرجُ منْ رأسِي الوقتَ كلّه.

- يقولون إنّ ذلك ينبئُ بأنّ أناسًا يريدُون التّحدّثَ إلينا. عندي طريقةٌ خاصّةٌ بي لتجنّبِ البعوض عندما أريد النّومِ في النّهار.

- وكيف ذلك؟

- أتخيّل أنّي أمشي بخفّةٍ، فلا ينتبه إليّ البعوض.

ضحِكَ أبي ببطء.

- يا ابني، لا أستطيعُ الضّحك. من أين تأتي بهذه الأفكار؟!

- نَمْ، وسأبقَى بقربِك.

أغمضَ عينيْهِ، وعندما فتحَهما ثانِيةً كانَ اللّيْلُ قدْ حلّ.

- مازلتَ هُنا؟ أين أمّك؟

- لقد عادتْ إلى المنزل. طلبتُ منها أنْ ترتاح. وهي تحتاجُ إلى القيامِ ببعضِ الأعمال. ستأتِي بعْدَ قليل. هل تحتاجُ إلى شيْء؟

- نعم. أشعلْ ضوءَ الغرفة.

أطعتُه. ثمّ سحبتُ الكرسيّ إلى جانبِ سريره. فمسكَ بيَدي.

- أشعُر بالضّعفِ، يا ابني.

- لقد أجريتَ عمليّةً خطِرَةً. سيكونُ كلُّ شيءٍ على أحسنِ حالٍ، هل تشعُر بألمٍ كثِير؟

- ليْس كثيرًا. جسمِي أرهقهُ الاستلقاءُ في وضْعِيّةٍ واحِدَة.

أشعرُ باحتراقٍ فِي ظهْري. انظرْ إلى المفرشِ كمْ هو ساخِن.

- نعم، ساخن. هل بإمكانكَ مسْكي منْ عنقِي، وأنا أضعُ مسحوقَ بودرةٍ على ظهْرِك؟

- ممكن.

مسكتُ المسحوقَ، ووضعتُه على ظهْره. قُمْنا بما اتّفقنا عليْه. كان انتباهِي شديدًا كما لو أنّني أمسكُ بأرقِّ زجاجٍ في العالَم. ثمّ أعدتُهُ برفقٍ إلى وضعِه، ومع ذلكَ استطاعتْ أنّةٌ أنْ تُفلت منه.

- هل تحسّنت؟

- كثيرًا حقًّا.

- هل بإمكانكَ شُربُ الحلِيب؟

- بعْدَ قليل.

مسكَ بيدي مرّةً أخرى.

- زيزينيو!

- همم.

- أريدُ أنْ أطلبَ منكَ شيئًا.

ضغطتْ مخالبُ فولاذيّةٌ على قلبي. أكادُ أخمّنُ الطّلب. كان جزءًا من وعدِي بتحمّل كلِّ شيءٍ دونَ احتجاجٍ أو شكوى.

- تكلّمْ.

- أريدُ أن أطلبَ منكَ إنهاءَ علاقتِكَ العاطفّية. فهي ليستْ ملائِمة. مبكّرٌ جدًّا القيامُ بهذا الآن. ما زلتما صغيريْن، لا تفكّران...

عضضتُ شفتيّ.

- ماذا تقول؟

أخفضتُ رأسي، ومسكتُ بيدهِ، ووضعتُها على خدّي. لم أتحدّثْ يومًا بذلك التّواضع الكبير، ولمْ يكنْ خجلًا منَ الرّبّ.

- هل هذا ضروريٌّ جدًّا يا أبي؟

- مادامَ هناك وقتٌ يا ابني.

لن أبكيَ بعْدَ الآن. ولن أحبَّ شيئًا مستقبلًا. لا أحد. فهذه الدّنيا سيّئة. رفعتُ رأسِي، ونظرتُ إلى عينيه.

- من فضلكَ يا بنيّ، لا تكرَهْني. لا تنظرْ إليّ هكذا بنظراتٍ قاسِية...

صدمني طلبه حتّى تجمّدتُ. ودون أنْ أشعُرَ، سافرَ تفكيرِي ثلاثينَ سنةً فِي المستقبل. لو أصبحَ لديَّ طفلٌ يومًا مّا، هل سأكونُ قادرًا على القيامِ بالشّيءِ نفسِه...

عندَها حدثَ شيءٌ لم أعهدْهُ منْ قبْل.

انهمرتِ الدّموعُ على خدّيه. لا بدَّ أنّ ذلكَ كلّفهُ الكثير.

أخرجتُ منديلًا منْ جيبي.

- امسحْ دموعَك. لا تبكِ. لا. أنا لا أكرهُك. أعدُكَ بأنْ ينتهي كلُّ شيءٍ اليومَ بالذّاتِ، وعلى الأكثر، غدًا بعْدَ الظُّهر.

كانَ قلبي يقولُ لي: «غدًا بعْد الظّهرِ، أليْس الأحد؟ ألنْ تلتقِيا في الحديقة؟ ألم تتّفقا على هذا لأنَّ النُّقودَ لا تكفي للذّهابِ إلى السينما؟».

جذبَ رأسِي، وقبّلَ خدِّي.

- شكرًا لكَ يا بنيّ.

جلستُ على الكرسيّ. لقد خلتِ الدّنيا تمامًا منَ المُوسيقى. نظرتُ إلى وجهِه وأنا أحاول الابتِسام.

- أغمضْ عينيكَ، ونمْ قليلًا. يجبُ ألاّ تتأثّرَ كثيرًا...

عادَ أبي إلى المنزلِ بعْدَ خمسةَ عشرَ يومًا. كانَ يمشِي ببطء. وكنتُ أحمِلُ لهُ الصُّحُفَ كلَّ صبَاح.

- أليْسَ سِباقُ القواربِ هذا الأحد؟

- بلى.

- ولمْ تتدَرّبْ أكثر؟

- كلّا. لستُ جاهِزًا.

- هذا هراء. ففِي ظَرْفِ ثلاثةِ أيّامٍ، وبهذِهِ المُقاومَةِ الّتِي عِنْدَكَ، بإمكانكَ تداركُ كلِّ شيْء.

كذبتُ دونَ ندَم.

- ليْسَ هَذا بالضّبْط. كلُّ ما فِي الأمْرِ أنّهُ لا يُوجَدُ متسابقونَ لمسافةِ الألفِ وخمسمائةِ متر. ستكونُ مَهْزلةً أنْ أسْبَحَ بمفردِي. لقد انسحبتُ. ففي النّهايةِ، نحنُ نتدرّبُ كثيرًا، ولا نسبحُ حتّى نصف المسافةِ المُنتظَرة.

- ورغْمَ ذلكَ، أنا أعتقدُ أنّهُ يجبُ عليكَ السّباحة.

- آه. لا. لنْ أعَطِّلَ سِباقَ القَوارِبِ أكثرَ مِنْ نِصْفِ ساعَةٍ فقَطْ مِنْ أجْلِي...

فتحَ الصّحيفةَ، وشردَ ذهنه. فخرجتُ، أبحثُ عنِ الشّارِع. كانتِ الشّوارعُ خاليَة. ولا أحدَ يلاحظُ أنّني أموتُ ببطْء. وصلَ بِي الأمرُ إلى حدٍّ فقدانِ الوَزن. ادّعيتُ أنّ ذلكَ بسببِ انشغالِي بصحّةِ أبي. لم أعدْ أغنّي ولا أصَفّر. وطارت العفويّة التي كانت مجرّد قناع، حتّى الطّعام صرتُ أبتلعُه بصعُوبة. وكمْ طالتِ اللّيالي! كنتُ أتركُ سرِيرِي، وأجلسُ وحيدًا أراقِبُ النّجومَ، إلى أنْ يجعَلنِي صياحُ الدّيكِ أنام. سيطرَ الغضبُ المكتومُ على أدقِّ تفاصيلِ تصَرّفاتي. وأحيانًا، كنتُ أنزلُ إلى منطقةِ الدّعارَة. أشربُ. وأقبلُ دَعْوةَ الأصْدِقاءِ لليلةٍ حمْراء. فقدتُ رغبةَ الاستيقاظِ باكرًا للذّهابِ إلى السّوقِ، وشراءِ ما نحتاجُ إليه. فإذا كنتُ قد توقّفتُ عنْ حبِّ السّباحةِ، فلماذا أستيقظُ قبْلَ العاشِرة؟ أغلقتُ فمِي أمامَ أيّ اتّهام. ولم تعُدْ عِنْدي رغبةٌ في النّظرِ إلى أيِّ

فردٍ منَ الأسْرة. ووصلَ بِي الأمرُ حدّ الامْتِناعِ عَنِ العَشَاء.

وجدتُ أنّهُ منَ الأفضلِ أنْ أزورَ تارسيسيو.

- لا أستطيعُ أنْ أبقَى معكَ لأنّني ذاهبٌ لرؤيةِ فتاتي.

- أعرفُ ذلك.

- هل صحيحٌ، يا زاي، أنّكَ ضربْتَ صفحًا عن الأمرِ، ولنْ تُشارِكَ فِي سباقِ الألفِ وخمسمائةِ مِتْر؟

- إذا كنتَ صديقِي فلا تفكّرْ فِي ذلك.

واضحٌ. الشّيطان. اللّعنة. تبًّا! لم أبكِ ثانيةً منذُ تلكَ اللّيلةِ في المُستشفى. وها إنّي الآن خنَعْتُ مرّةً أخرى.

- ماهذا، يا زاي؟

- لا شيء.

- أنتَ غريبٌ جدًّا!

- ليْس مُهمًّا. اذهبْ لرؤيةِ فتاتِك.

ظلّ تارسيسيو أمامَ المرآةِ يعدّلُ ربطةَ عنُقِه. ربّتُّ بلطفٍ على كتفِه وغادَرْت.

الفصل السابع

المتشرّد

فتّشتُ بدقّةٍ أعماقَ الدُّرجِ، ذلك المكانِ الغامضِ، ثمّ أخرجتُ الصّورةَ، ووضعتُها في كفّ اليد. تمّ كلُّ ذلك خفيةً كما لو أنّني أرتكبُ جريمة. ثمّ استيقظت فيّ ذكرياتُ الطّفولةِ، وذلك الهوسُ الغامضُ لافتعالِ ألغازٍ وأسْرار. تذكّرتُ كيفَ كنتُ أحملُ كلّ أشيائِي لأضعَها فِي ثقْبِ شجرةِ السّبّوتة. ولطالما فعلتُ ذلك خلالَ أيّامِ العطلِ، وحتّى في السّاعاتِ الّتِي ينامُ الجميعُ خلالَها، كم مرّةً ذهبتُ إلى الحاكورةِ، وجريتُ على طولِ السّورِ، وتسلّقتُ شجرةَ السّبّوتة. لمْ يكنْ ثمّةَ عالمٌ آخر في نظري غير هذا العالمِ. وكلُّهُ كان مِلْكي. كان هبوبُ الرّياحِ بعْدَ الظّهرِ، أو همسُ اللّيلِ، يجعلُنِي أكفُّ عنِ الحركةِ فوق الأغصان. وطالما سرقتُ أشياءَ تافهةً لأخفِيَها في منجمِي، واستمعتُ إلى تمتمةِ الخادِماتِ: - كان عندي اثنيْ عشرَ مشبك ملابسٍ، ولكنّني الآن لا أجدُ سِوى سبعة.

فأضحكُ في سرِّي. إنّها فِي المنْجَم.

ماكينةُ حلاقةٍ قديمةٌ، سكّينٌ دونَ مقبضٍ، كلُّ أنواع الحديدِ، مثاقيبُ، كلُّ آلةٍ لها رأسٌ حادٌّ، جميعُها سرقتها من صندوقِ أدواتِ

أبي، لآخذها معي عندما أهربُ إلى غاباتِ «الأمازون»، وأصيرُ الإله الأبيضَ لقبيلةٍ كبيرة. لن أترك أحدًا حيًّا. سأصيبُ كلّ البيضِ المعْروفين هناك.

فكّرتُ، وفكّرتُ. ليْس كلّ البيض. فالرّاهبُ فيليسيانو لا يستحقُّ ذلك، ولا تارسيسيو. وبائعُ البوظةِ أيضًا رجلٌ طيّب. ولكنّ أختي الكبرى ستكون الضّحيّة الأولى. ستأتي في مقدّمةِ المُصابينَ لتكونَ عبْرة. ألمْ أكنْ أسمعُ كلّ يومٍ أنّ الرّأفةَ تبدأُ في المنزِل؟... وماذا عن أبي؟ هناك تكمنُ المشكلة. لم يكنْ يحبّني، ولكنّني لا أستطيعُ فعل أيِّ شيءٍ ضدّه. كنتُ أتساءلُ بالقربِ من شجرةِ السّبّوته، لماذا تلك اللّامبالاة كلّها؟ ليس لأنّهُ يعاملني بسوءٍ أو يتشاجرُ معي. ولكنْ لأنّني كنتُ موجودًا، كنتُ إنسانًا فعْلًا؛ كان الجميعُ يقولون إنّني تلميذٌ مجتهدٌ، وصاحبُ خيالٍ، وغريبٌ قليلًا، أمّا هو فلم ينظر إليّ إطلاقًا. كانت كلماتُه المعهودةُ مثلَ: «تصبح على خير»، أو بركتُه تخرجُ بإيقاعٍ آليٍّ باردِ. هل كان ذلك سببًا وراءَ عدمِ تعلُّمي البيانو؟ ممكنٌ أيْضًا. فأنا أكرهُ البقاءَ في سلّم دوم ـ دوم ـ دوم... دوم ـ دوم ـ دوم، ساعاتٍ متتاليَة. لو اكتشَفوا أنّني أتسلّقُ الأشجارَ، وأصنعُ السّفنَ، وأغلّظُ أصابِعي، فإنّ جمر الجحيمِ سيشتدّ توهّجه. ربّما لهذا السببِ سأكون مع قبيلتِي، وأبدَأ بغزوِ «سيارا»، ثمّ أمرّ إلى «بيرنامبوكو»، ولكنْ، قبلَ ذلكَ سأحِيكُ مكيدةَ، وأرسلُ برقيّةً إلى أخْتِي. وهي ستقعُ في الفخّ، وتذهبُ إلى «موسّورو» حيثُ سنقومُ بطهيها مع شحمِ الخنزيرِ المغليّ...

مرَّ كلّ شيء. دمّر الزّمنُ كلّ شيءٍ ببساطةٍ كبيرةٍ، وظلّتْ صورةُ سيلفيا في كفِّ اليدِ، مرتديةً زيّ بحّارٍ، ذكرى آخر كرنفال قضّيناه معًا.

لم أستطِعْ منذُ ذلكَ اليَوْمِ، إنْ جازَ التّعْبيرُ، تجنُّبَ مُقابَلتِها. كرِهْتُ نفْسِي، وكنتُ أسيرُ نحْوَ تدْمِيرِ ذاتي. وكبُرَتْ رغبتي في ألّا أعيشَ أكثرَ، ولا آكلَ، ولا أذهَبَ إلى البحرِ، ولا أنظرَ إلى أبي خلالَ تناولِ وجباتِ الطّعام. غادرتُ مرّاتٍ كثيرةً «ناتال»، ومشيتُ نحْوَ شاطئِ «برايا دو بونتا نيغرا»، ولمْ أعدْ إلّا مساءً، أحمرَ منْ فرطِ التّعرّضِ إلى الشّمْس. فآكلُ أيّ شيءٍ، ثمّ أذهبُ مباشرةً إلى النّوم. كما أصَابنِي العمَلُ فِي السّفُنِ بالملَل. إذْ صِرْتُ أخطِئُ في عدِّ الرّافعاتِ، فأظلّ أدخّنُ اللّيلةَ كلّها ناظِرًا إلى عنابِرِ السّفينةِ متسائِلًا: لماذا لا أهْجرُ ذلك؟ لقدْ بعَثتْ جُمْلةُ أبِي حياةً في مسامِعي: «ناتال مدِينةٌ صغِيرةٌ، أنْتَ تحتاجُ إلى عالمٍ أرحب». ألم يكنْ ذلك هو ما أريد؟

– لقد اتّصلوا ليقولوا إنّ سفينةَ «أراكارا» قد وصلتْ إلى الميناءِ، وإنّهم بحاجةٍ إليك.

– لنْ أذهب.

سِرتُ في الشّوارع. انتظرتُ تارسيسيو عند بابِ مركزِ الصّرفِ الصّحّي. وطلبتُ منه بتواضعٍ:

– تارسيسيو، هل تقرضُني ألفيْ ريايس؟ أنا فعلًا على الحدِيدَة.

مشينا معًا، وتملّكتني رغبةٌ كبيرةٌ في أنْ أخبرَ صديقي بمدَى شجنِي الفظِيع. لكنّني نكصْتُ، وابتلعتُ ذلك الكربَ الجافّ. يا لهُ منْ شُعورٍ وحشيّ.

- هل أنهيتُما علاقتكما، يا زاي؟

- لم تنْجحِ تلك القصّة.

آه، عاودتنِي تلك الرَّغبةُ المجْنُونةُ في الإسْراعِ، وركلِ حصَى الشّارعِ بقوّة.

- هي في علاقةٍ الآن مع بوب، ابن ميستر كناب، ذلك الفتَى النّحيل، ذي العينين الزرقاوين.

- أعرف.

صحيحٌ أنّني أحبُّ بوب، ولكنْ، في تلكِ اللّحظةِ استبدّتْ بي رغبةٌ في تسديدِ لكمةٍ قويّةٍ إليهِ، وتعليقِهِ على جدارٍ مثلَ إطارِ زينة.

احتفظتُ بالصّورةِ، وأغلقتُ الدُّرج. نظرتُ إلى وجهِي شبهِ الملتَحي في المِرآة. ربّاه! يا لهُ منْ وجهِ سفّاح. ولمْ يكنْ، في الحقيقةِ، أقلَّ منْ ذلك. النّساءُ هنّ فِعْلًا كذلك. لو كانَ باستِطاعتِي العيشُ أطول...ولكنْ، كم؟... لقد كنتُ قويًّا، نعَمْ قوِيًّا. لنقُلْ خمْسِين سَنَة. لنْ أنظُرَ مُطلَقًا إلَى امرأةٍ أخرى. وأمّا هِيَ فتأتِي مباشرةً لتتّهِمني في كلِّ لحظةٍ، وتوبّخنِي كثيرًا كلّما نظرتُ إلى فتاةٍ أخرى. فقطْ بعْدَ خمسة عشر يوْما!... بوب كناب! عينايَ شَاحِبتانِ مُثقلتانِ بالحُزْن. سأذهب إلى ...

جلستُ على درابزين «بيتروبوليس» وظللتُ أنظر إلى البحرِ الأزرقِ الشّاسعِ، والزّبدُ يملأُ الشّاطئ. هبّتِ الرّيحُ العاصِفةُ على وجهِي وحرّكتْ شعْري. هُناكَ بعيدًا عنْدَ مدخلِ شاطئِ «برايا دا ردينيا» تأتِي زوارقُ الصّيدِ تدفعُها الأشرعةُ ظهْرًا. وهُناك في عمقِ البحرِ، يظهرُ اليختُ الشّراعيُّ في «بيرنامبوكو»، ذاكَ الّذِي يحْمِلُ المِلحَ منْ «ماكاو»، متمايلًا تحتَ قوّةِ الرّياحِ، بشراعِهِ الأماميِّ المبلّل. ثمّ يظهرُ ظلامُ اللّيلِ دونَ تسرّعٍ، ودُون إذْن. وكم كانَ ذلكَ طيّبًا للرُّوح. أضيئتْ أنوارُ الدّرابزين، وقامتِ النّجومُ بالأمر نفسِه فِي أعالِي السّماوات. أمّا الجسمُ الّذِي ارتَخى فِي وضعِهِ الثّابتِ، فقد طالبَ بالحرَكة. فبدأتُ المشيَ على القدَمينِ العجُوزيْنِ فِي عالمٍ كلُّ ما فيهِ مُعاد. لا أريدُ أنْ أذهبَ إلى البيتِ للعشاء. منَ الأفضلِ شراءُ بعضِ حلويّاتِ «باغانا»، وأكلُها على صينيّة. أيُّ إدمانٍ شيطانيٍّ يدفعني إلى تلكَ الحلوى كلّما انتابنِي الحزن، فأبحثُ عنها فِي السّاحةِ الصّغيرةِ، قبلَ اشتدادِ الحرَكة! وفِي النّهاية، هاهي السّاحةُ كبيرةٌ ومبلّطةٌ بالفسيفساءِ، وأشجارُ التّينِ البينجامينيّ الّتي فِي وسطِها متهالكةٌ، وورودُها بلا أزْهار.

مرّ صديق.

- زاي، اليومَ تُجرى مُباراةٌ هُنا، فِي ملعبِ كرةِ السّلّة.

- مَن ضِدَّ مَن؟

- «سبور» ضِدَّ «بانكو دو برازيل».

- حسنًا، أليْسَ جيّدًا؟ هل عندكَ سِيجارَة؟

انفجَرَ الصّدْر.

- «تروكاديرو»، هل ينفع؟

- في الظّلامِ، ينفعُ كلّ شيْء.

أشعلتُ السّيجارةَ، وبقيتُ وحدي مجدّدًا، ملتفًّا في حُزْني.

أبصرتُ هُناك فتاةً تتجوّلُ بعيدًا معَ طفْل. كانتْ تيياوف! فقفزَ قلبِي بجُنون. هي. ليْستْ هي. رأيتُ سرابًا يذهبُ ويجيء. طقطقتُ أصابِعي. لا. ليْستْ هي. الصّبيّةُ كبيرةٌ جدًّا لتكونَ أختَها، وهيَ تمشِي خلفَها بمسافةٍ بعِيدَة. لكنّ طريقةَ مشيتِها هيَ نفسُها. حتّى لو كانتْ هيَ، فلنْ أذهبَ إليها. لقد انتهى كلُّ شيءٍ بيننا، ووضعْنا مجرفةً من الجيرِ فوقَ الموضُوع. واضِح. لنْ أذهَبَ خلْفَ امرأةٍ ثانيَة. لتبقَ مع ذلكَ الإنجليزيّ صاحبِ العينينِ الزّرقاوينِ، طائرِ الصّفّار.

لقد كانت سيلفيا لوحدها. لم أرد أن أذهب، ولكن أقسم أنّ القلب دفعني إلى الأمام ولا أدري كيف. كانت تضحك عليّ بغمازتيها (من الإنكليزي، من الإنكليزي، بيضة سمك!).

لم نتصافح.

- كيف حالكِ؟

- أنا بخير. وأنتَ؟

- تقريبًا جيّد.

- أتوقّعُ ذلك.

- ماذا تفعلينَ هنا بمفردكِ في السّاحة؟

- ألستُ امرأةً حرّة؟

كان شعرُها مجعّدًا، وملفوفًا في شكلِ ضفائِر.

- يعجبُني شعرُكِ عندما ينزلُ على كتفيْكِ أكثر.

- تحبّهُ هكذا حقًّا؟ أنا أحبّ التّغيير.

كانتْ لديها لامبالاةٌ مؤلِمة.

- هل أنتِ في علاقةٍ مع بوب كناب مرّةً أخرى؟

- حبٌّ قديمٌ يولدُ منْ جدِيد. وقد جئتُ إلى هنا لأنتظرهُ، ونحضرَ معًا ألعابَ السّاحَة. منْ برأيك سيفوز؟

عضضتُ شفتيّ مِنَ الغيْض.

- سبور.

- أنا أيضًا أعتقدُ ذلك.

مشينا على مهلٍ، ودون سرعةٍ تُذكر، ملتصِقيْن بالأرضِ، إنْ جاز التّعبير. ابتسمتْ سيلفيا لي.

- الآن اسمحْ لي. فقد يأتِي بوب.

ابتعدتُ خطوتيْن. ثمّ قفزتُ، ومسكتُ ذِراعَها.

- انتظري قليلًا. لديّ فقطْ سؤالٌ واحدٌ: هل قمتِ بهذه الضّفائرِ

منْ أجلِ بوب؟

- لم يكنْ مِنْ أجلك.

- تخرُجين مع بوب. هل عندكَ شَجاعة؟

- ولِمَ لا؟

- لأنّني لا أرِيد.

أمسكتُ بيدِها، وجذبتُها جذبةً تكادُ تكونُ عنيفَة. عبرنا السّاحةَ، وذهبنا إلى ظلِّ أشجارِ التّينِ البينجامينيّ. جذبتُها نحوي، وقبّلتُها. مرّةً، مرّتيْن، ألفَ مرّةٍ، والقلبُ يضحكُ باكِيًا.

- يا علكة!

- يا دُودتي الصّغيرة. أنتِ لستِ تابعةً لأحدٍ، أليْسَ كذلك؟

جاءَ الجوابُ من فمِها النّدِيّ.

- أنتَ تفسِدُ تسريحةَ شعْري.

- لا يهمّ!

- وأبوك؟ لقد وعدتَهُ يا علكة!

- أحبّك، يا دودَتي. كدتُ أموتُ خِلالَ هذِه الأيّام. لا أحدَ بعْدَ الآن يستطيعُ الفصْلَ بينَنا. لا الربُّ ولا الشّيطان.

- لا تتكلّمْ هَكذا، إنّهُ كلامٌ مخِيف.

أنا أكثرُ هدوءًا الآن، فسيلفيا محاصرةٌ بينَ ذراعيّ، أمرّرُ يدي بلطفٍ على شعْرها.

- هل كان بوب حقًّا؟ أنتِ لا تُحبّين بوب، أليْسَ كذلك؟

- بوب مجرّدُ صدِيق. لقدْ عرفتُ أنّك ستَعُود.

- كيف اكتشَفْتِنِي فِي السّاحةِ الصّغِيرة؟

- قلتَ لي دائمًا، إنّك عندما تحزنُ، تجلسُ في السّاحةِ الصّغيرةِ قبْلَ أنْ تزدَحِمَ بالنّاسِ، هل تذْكر؟

لمّا يزلْ وجهُها لاصقًا بوجْهي.

- يا علكة!

- همم!

- لن تتركنِي ثانيةً أبدًا.

- ولا أنتِ!

- أنت.....

كانتْ قبلةً طويلةً، ومبلّلةً، وحارّة.

- أحبّكِ...وأنتِ؟

أخذتْ لهفةُ القبلاتِ تزدادُ، وتزداد... أبِي، أمّي، نجمةٌ، دُنيا، كون. أرضٌ، ناسٌ... لا شيء وقتَها موجودٌ بالنّسبةِ إلينا.

ليْس بإمكانِ أحدٍ ارتكابُ جريمةٍ أكبر منْ تلك. ولا حتّى لمياو المصحوب بالكنغاسيّين[1] الّذين يشنقون النّاس، ويجرّون الشّعبَ خلفَ الخُيول. بل إنّ خاطفَ ابنِ ليندبيرغ أكثرُ أخلاقًا وجِدّية.

ثمّةَ كلمةٌ تردّدت في منزلِي هي كلمة: وعدٌ مفسوخٌ، وفي حالتِي أنا على الأقلّ، كانتْ مُرادِفةً لإهانةٍ كبِيرة.

اللّعنةُ على الإنسانيّة. ولكنْ، اللّعنةُ حقًّا. لقد سادَ العداءُ فِي كلِّ مكان. فقد راقَبنا أخو سيلفيا الأكبرُ ككلبٍ شرِس. وحملتْ أختِي الكبرى أخبارنا إلى البيتِ بطريقةٍ عجِيبة. وظلّتْ تكشفُ كلَّ شيءٍ ساعةَ الغدَاء.

أمسِ، مشتْ في «ريبيرا» غيرَ لابسةٍ سروالًا تحتَ فُستانِها. لقد رأيتُها. كانتْ في مخزنِ «سانتا تيريزينيا» التّابعِ لدونا ليتيسيا سيركيرا، وقد رأيتُها بعينيّ هاتينِ اللّتين سيأكلُهما التُّراب.

– وكيفَ رأيْتِ ذلك؟

– لقد هبّتِ الرّيح.

(1) فيرجيليو فيرايرا دا سيلفيا (1898 – 1938) الّذي اشتهر في البرازيل بوصفه ملكَ كانغاسو. وكان الكانغاسيّون مجموعةَ عصاباتٍ مسلّحة وقويّة تجوب الشّمال الشرقيّ البرازيليّ تنهب المدن الصّغيرة والمزارع وأحيانًا كان يتمّ توظيفهم من طرف سياسيّين ومُلّاك أراضٍ لتصفية حساباتهم. يُعرفون بالعصابات الخطِرة.

لقد عشنا كمُجرِمين، نبحثُ عنِ الظّلامِ، وعنْ أماكنَ مهجورةٍ، ومظلمةٍ، وبعيدةٍ عنْ عيونِ البَشر. ولكنْ، رغْم ذلك، فإنّ مؤامراتِ المُعارِضين لمْ تتوقّف.

- جميعُ النّاسِ يعلّقونَ باشمِئزاز. يا لهُ منْ فُحش! لقد انتَهى عرضُ الفيلم فِي الحصّةِ المخصّصةِ للفتياتِ فِي سينما «ريكس»، ولكنّهما واصلا تبادل القُبل...

جاءتْ سيلفيا ليلًا لتتحدّثَ إليّ. لقد التقَى أبوها بأبِي، وكانا مذْعُورين.

- علينا أنْ نفرّقَ بيْن هذين الصّبيّين.

- ماذا بإمكاننا أنْ نفعل؟

- سأجدُ طريقةً لأرسلَ ابني خارجَ المدِينة...

- أنتَ قلتَ إنّهما سيهربانِ معًا إلى «أراغوايا»؟

مسكتْ سيلفيا بيدِي.

- هل قلتَ ذلك، يا علكة؟

- أجل. قلتُ ذلك عندمَا ضغطُوا عليّ أكثرَ منَ اللّازم. فلجأتُ إلى التّهدِيد.

- وهل سنهربُ حقًّا؟ لنذهب!

- سيكونُ ذلكَ رائِعًا. ولكنْ، بماذا؟ فالنّقودُ الّتي قد أقترضُها أو حتّى أسرقُها لا تكفِي لمسيرِ نصفِ ساعةٍ فِي اتّجاهِ «ماكايبا».

تعانقنا مُحبَطيْن. تسرّبَ إصبعُها النّاعمُ تحتَ قمِيصي، وظلّ يرسمُ شكلَ رقمِ ثمانية. كمْ كانَ ذلك رائِعًا.

- لماذا لديكِ هذه العادةُ في رسمِ ثمانية على صدْري؟

- ليسَ على صدرك فقط بل على كامل جسدك. فعندما أكونُ متوتّرةً، أرسمُ ثمانيةً بسرعةٍ، ثمّ أبدأُ فِي التّراخِي، إلى أنْ تصبحَ الثّمانيةُ شيئًا سلِسًا ورائِعًا.

- صحيح. لقد أعطَى ذلك مفعولَه! أنا أعدُّ إلى أنْ أصلَ إلى العدد ثمانمائة وأكثر، وعندمَا أنتهِي منَ العدِّ تنتابني رغبةٌ في تفجيرِ كلِّ شيْء.

- كم تبالغُ يا عزِيزِي!

وتكرّرَ الحادثُ مرّةً أخرى فِي المنزل. وجوهٌ عابسةٌ، تنهّداتٌ، كلماتٌ غيرُ مباشرةٍ، فتنبتُ عروقٌ لكلمةٍ تشرُّد. أمّا أنا فيؤلمُني صمتُ أبي. إذْ بعدَ كلّ ذلكَ التّقاربِ يأتِي هذا الصّمتُ غيرُ المفْهُوم. ولمْ أعدْ أطلبُ بركتهُ حتّى. آخذُ متأخّرًا صحنِي إلى المطبخ. فألمحُ منْ حينٍ إلى آخر في عينيْ أختي الصّغرى الزرقاويْنِ نظراتِ تضامنٍ سرِّيّة.

- «بعدَ الصّلاةِ التّساعيّة، وتحتَ المطرِ، يأتِي اثنانِ فاحِشان عالقيْنِ فِي القُبُلات!».

- كنّا نحن.

وقبْلَ أنْ تشتدَّ العاصفةُ، أنسحبُ من طاولةِ الطّعامِ، وأخرجُ على غيرِ هدًى إلى الشّارع.

- سأرحلُ، سأرحلُ، سأرحل!...

أبي يريدُ ذلك، والجميعُ يريدُ رحِيلي، ولذلكَ ها إنّني سَأفعَل.

تسلّلتُ إلى ميناءِ «كابيتانيا دوس بورتوس».

- ماذا حصلَ يا زاي؟

ردّ بونسيانو بابتِسامة. فقد كنّا دومًا رفيقيْنِ في النّادِي. وهو يلعبُ لمصلحةِ نادِي «سبور».

- بونسيانو، يا خبيرَ الحربِ، هل هذا صحِيح؟

قلتُ، وأنا أمسكُ بقصاصةِ جريدةٍ، حيثُ نُشرَ إعلانٌ عنْ مناظرةِ انتدابٍ في «مارينيا ميركنت».

- أجل. وسيتمُّ ذلك لاحقًا. لقد أعلنُوا عنِ الانتدابِ في وقتٍ متأَخّر.

قرأَ بونسيانو بصوتٍ عالٍ:

- مرشدُ سفِينة.

قبْطان.

مدقّقُ بضائِع... إلخ.

- يا بونسيانو، في أيّةِ وظيفةٍ منْ بينِ هذِه الاختصاصاتِ يبدأُ

المرءُ في كسبِ مالٍ أكثر؟

- القبطانُ له مستقبلٌ أفضلُ لأنّه يترقّى في الرّتبة. أما مراقبُ البضائعِ، فيبدأُ براتبِ سبعمائةِ ألفِ ريايس منذُ تعيينه.

- سأتقدّمُ لهذا... عندِي خبرةٌ في الموضُوع.

- وستجنّنُ الفتياتِ، وأنتَ تلبسُ الزّيّ الرّسميّ.

- أجل.

تنهّدتُ بارتياح. سأجمعُ الأموالَ، وأعودُ لأخذِ سيلفيا.

- يقولونَ إنّ الاختبارَ الصّحّيَّ صعبٌ للغاية.

لكمَنِي بونسيانو على صدْري.

- بدأت بالسلّ...

صعدتُ درجاتِ العِيادة. لا شيءَ في العالِم سيُثنِيني عنْ رغْبَتي. تحدّثتُ مع الممرّضة. أبي سيفحصُنِي لاحقًا، ما إنْ ينتهيَ منْ فحصٍ آخر.

لقد دامَ انتظارِي دهرًا. تعرّقتُ رغْم أنّ القاعةَ لم تكن ساخِنةً. خرجتْ امرأةٌ عجوزٌ وصبيّة. تحدّثتا، وطلبتَا الكثيرَ منَ الأشياءِ لتصديقِ الوصفةِ الطّبّيّة.

أشارَ إليّ بالدّخولِ منْ دونِ ابتِسامة.

- اجلس.

أدارَ الكرسيَّ الزّنبركيّ، ثمّ جلسَ، واتّكأَ مُواجهًا المَكتب، وهو يديرُ بيْنَ يديْهِ مطرقةَ الفحصِ الطّبّيّ. لنْ أنسَى نظراتِهِ الفاحصةَ، ولو عشتُ ألفَ سنة.

حككتُ رأسِي، وأحنيتُ جسْمي، ووضعتُ يديّ بيْنَ ركبتَيّ، ولكنْ، لمْ تخرجْ أيُّ كلمَة. وعندما رفعتُ رأسِي، كانتِ المطرقةُ تقولُ كلَّ شيْء.

في النّهايةِ، لستُ أحضُرُ حسابَ يومِ القيامةِ، وإذا ما كانَ ليومِ القيامةِ كلُّ ذلكَ الاحتضارِ والألم، فإنّني أفضّلُ أن أتوارَى عنِ الأنظارِ، وأخْتَفِي.

أدخلتُ يدِي في جيْبِي، وأخرَجْتُ القُصَاصَة.

- بخُصوصِ هذا.

وضعَ أبِي نظّارتَهُ بهُدُوء. وكان حزني يستطلع التأثير الناتج. استقرّتِ القصاصةُ فوقَ المكتبِ، وظلّتْ نظراتُه تدورُ، بدَلًا منَ المطرقةِ، حولَ أصابِعه.

- أحتاجُ إلى هذِه المُناظَرَة. وهَكذا، سأرْحل.

ثبّتَ عينيْهِ فِي عَينيّ. فعرفتُ أنّني لحسنِ الحظّ، سأرحلُ، وأتركُ أبِي بخيرٍ، أو على الأقلّ، أفضلَ بكثِير.

- وماذا اخترت؟

- مدقّق بضائِع.

- لا مستقبلَ لمهنةِ القُبطان؟

- مدقّقُ البضائعِ يكسبُ أكثرَ في البِدايَة.

- وفي النّهاية؟

- لا أنوي قضاءَ حياتِي كلِّها في «مارينيا ميركنت».

- أنتَ تتحدّثُ كما لوْ أنّك نجحتَ في المُناظَرة.

- سأنجَح، مهما كلّفني الأمر.

- ماذا ينقصُك إذن؟ النّقُود؟

- لإعدادِ الوثائِقِ المطلوبة. أنت تقرضُنِي الآنَ، ثمّ سأرجِعُ لك.

وقتَها فقطْ كسَرَ قسْوتَه. وضحِك. فتشجّعتُ منْ جدِيد.

- هل نحنُ عدوّان إلى هذِه الدّرجة؟

- لا. لا يا أبي. لا أحدَ يفهمُني.

توجّبَ عليّ أنْ أخفضَ رأسِي، وإلّا فإنّني سأخِنُّ، ويتسرّبُ الجُبْنُ إلى عينيّ. ولكنّني لنْ أتنازَل، وإنْ فصلتنِي مجرّدُ لحظةٍ عن الارتماءِ بيْن أحضانِهِ باكيًا: «أنت تعرفُ يا أبي أنّني لا أستطيعُ الوفاءَ بوعدِي ذاك. ما كانَ يجبُ أن تطلبَ مِنّي ذلك. لقد كنتُ أموتُ يا أبي. صدّقني، كنتُ أموتُ أكثرَ منك».

ثمَّ تحكّمتُ في نفْسي: «أنا رجُل. وعليّ تحمّلُ مسؤوليّةِ خياراتِي.

إذا لمْ أرحلِ الآن، سيظلُّ بيننا دائمًا عدمُ التّوازنِ ذاك فِي البيْت. لا تتنازلْ، يا زاي.»

- كمْ تحتاج؟

- مائتيْ ألفِ ريايس تقْريبًا.

أدخلَ يدهُ تحتَ المئزرِ، وأخرجَ ظرْفَ أوراقٍ نقديّة. وبدأ يعدُّ ببُطء.

- هذا غيرُ كافٍ. سأقدّمُ شيكًا إلى بنكِ «كايشا إكونيميكا».

كانَ مبلغُ مائتيْ ألفِ ريايس، في ذلك الوقتِ، كبيرًا. ملأَ الشّيكَ، وقبْلَ ذلكَ، عدّلَ النّظّارةَ، ونظراتِي تراقبُ كتفيْهِ، ورأسَهُ المغطّى باللّباسِ الطّبّيّ. استدارَ مبتسمًا، وسلّمَنِي الشّيك.

- رحلةً سعيدةً، أيُّها البحّار.مكتبة .. سُر مَن قرأ

استطعتُ تتبّعَ أفكارِه. ولمْ يخبْ ظنُّه فيّ. لقد عرفَ أنّني سأبحثُ عنْ حلٍّ لأنّهُ لنْ يجرُؤَ أبدًا على طرْدِي. إنّهُ يفتح لي أبواب الدنيا. وغمَرَنِي الخوْف. لمَ الخوف. الخوفُ، لأنّ العالمَ شيءٌ ضخْم. إنّهُ أكبرُ منزلٍ، وأتعسُ منزلٍ يمكنُ أنْ يستقْبلَ الإنْسَان. لففتُ الشّيكَ بيْنَ أصابعِي، ثمّ ثنيتُهُ، ووضعتهُ فِي جيْبي. خرجتْ كلمةُ شكرًا منْ فمِي مرتبكةً مثل ديك صغير يغيّرُ صوتَه. فأخذَنِي إلى الباب. وتكلّمَ مع الممرّضةِ:

- ليدخلِ التّالي.

هل ابتسمَ لِي قبْلَ أنْ يغلقَ البَاب؟

نزلتُ الدّرجاتِ دُون أنْ أشعُر بجسدِي، وتلك الكلماتُ النّاريّةُ تجوبُ رُوحِي: «الجغرافيا مادّةُ المُتشرّد!».

ناتال.

بعد الجزء الثّالث من «سلسلة زيزا»:
«المخبول»، يمكنكم قراءة الجزء الرّابع والأخير

اعترافات الرّاهب يقطين

(الجزء الرابع من سلسلة زيزا)

المؤلّف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل
ترجمة: محمّد بومعراف

«اعترافات الراهب يقطين» قصّةٌ بطلُها إنسانٌ مفرطٌ في إنسانيّته، أرهقتْه الحضارة حتّى ماتَ في داخله الطموح، لِمَا رأى من موتِ براءة الإنسان وتحوّله إلى وحشٍ أنانيٍّ يخفي حياتَه البائسة وراء أقنعة أوهامه. ولذا كرَّس الرّاهب نفسَه لخدمة الهنود وتخفيف معاناتهم، يقضي حياته بين المدينة والأدغال، وبين حضارةٍ يهربُ منها وطبيعةٍ يلوذ بها حتّى ينصهر فيها.

تدور معظم أحداث الرواية حول مرحلة البلوغ من حياة مؤلّفها، فتعرض مغامراته وصراعاته ووجوهَ تقلّبه بين البؤس والسعادة والمعاناة... وتسرد تفاصيل كثيرةً من حياته الحميمة، حقيقيّةً كانت أو متخيّلة. وقد نسجها الكاتب في لغةٍ سهلةٍ، على الرغم من التداخل العجيب بين الفلسفيّ فيها والرومانسيّ والدينيّ والسياسيّ، في طيّات حكايةٍ عن قبائل الهنود في أدغال البرازيل، وكلّ ذلك في سياقِ صراعٍ وجوديّ ونفسيٍّ عنيف، لا يجد صاحبُه أجوبةً مقنعةً لتساؤلاته.

صدر للمؤلّف البرازيلي جوزيه
ماورو عن دار مسكيلياني أيضًا

روزينها زورقي الصغير

المؤلّف: جوزيه ماورو
البلد: البرازيل
ترجمة: صلاح بن عيّاد

«رُوزينْهَا زورقي الصّغير»، قصّةُ غاباتِ الأمازون بأدقّ دقائقها. يرويها جوزيه ماورو، صاحب «شجرتي، شجرة البرتقال الرّائعة» بحرارةِ من تاه في تلك الغابات لحمًا ودمًا وذاكرة. يشقّ البطلُ زي أوروكو النّهرَ على متن زورقه الصّغير، رُوزِينْها. وليست رُوزينْها كأيّ زورق، إنّها رفيقة درب ومعلّمة تلقّن زي أوروكو ما لامست من دروس منذ أن كانت بذرةً، فشجرةً، فخشبًا يصير زورقًا. وهي رَاوِيَةٌ أيضًا، تُطْلِع صديقها زي أوروكو على قصصٍ ساحرة تتيح للقارئ أن يلمس روح الغابة بكلّ مكوّناتها. الغابة والنّهر، كون روائيّ فريد، سحريّ وموقّع بالأمطار والفيضان والشّمس.

نضحك مع هذه الرّواية ونبكي، نعيش ونحلم. نتوه في كون طفوليّ عجيب، حيثُ يجانب البؤسُ الغرائبيَّ وتؤاخي النّعومةُ القسوةَ ويغدو كلّ عنصرٍ موضوعًا للتساؤل ومادّةً للقصّ...

صدر مؤخّرًا عن دار مسكيلياني

إيميلي فتاة القمر الجديد

المؤلِّفة: لوسي مود مونتغومري
البلد: كندا
ترجمة: نور الشغار

أينما حلَّتْ إيميلي ستار، رنَتْ بناظريْها إلى السّماء بحثًا عن غيمةٍ عابرة، عن شمسٍ ضاحكة، عن نجمةٍ تُلوّح لها ببريق الأمل، عن قمرٍ جديد يُذكّرها بنشوةِ البداياتِ وتَجدُّدِ طعم الحياة. ترعرعت الفتاةُ في حضن والدها الحنون، ثمّ شاءت الأقدار أن تأخذها إلى مزرعةِ القمرِ الجديد حيث ستبدأ حياةً جديدةً وسطَ عائلةِ موراي. هنالك سنُرافق إيميلي في اكتشافاتِ الطّفولة الأولى، اكتشافات خدشَتْ براءتها وأفقدَتْ عالَمها شيئًا من ألوانه؛ فأبَتْ إيميلي إلّا أن تستردّها بالكتابة، وما لها من سلاح غيرُها لجبرِ خاطرها ومقاومةِ وطأة وحدتها. فالكتابةُ ملاذُها، وحبلُ نجاتِها، وشريانُ حياتِها. كيف لها، لَوْلَا الكتابةُ، أن تتحدّثَ عن مغامراتِها الرّائعة برفقةِ أصدقائها الّذين أعطوا لحياتها في «القمر الجديد» معنًى ورونقًا؟ وكيف لها، لَوْلَا أشعارُها، أن تصفَ ما استوعبَتْهُ عيناها من سحرِ الكونِ الفسيح؟ وكيف لها، لَوْلَا قلمُها، أن تخاطبَ والديها، خارقةً بذلك قواعدَ الزّمانِ والمكانِ، والحياة والموت؟ تلك هي إيميلي، فتاةٌ تخرق المألوف، وتجهر بآرائها، ولا تخنع أمام الظّلم، ولا تعتذر عمّا تكون.

جوزيه ماورو

المخبول

يصعب علينا ونحن نقرأ «المخبول» ألّا نستحضر قصّة الصبيّ الوديع زيزا في «شجرتي شجرة البرتقال الرائعة» و«هيّا نوقظ الشمس»، وألّا نتورّط في التعاطف معه، ومع مواقفه وقراراته وقد غدا فتًى في العشرين من عمره. إذ لم يتخلّ الفتى «زيزا» أو «زاي» عن وهج أحلامه الذاتيّة فلم يكفّ عن البحث عن معنًى لحياته، ونحت مغامراته الشخصية في عالم مُعادٍ له، حتّى صار يُنعت بالمتشرّد.

واجه «زاي» الأسرة والمدرّسين والقساوسة وأصرّ على اتّباع حُلمه والبحث عن سعادته. إنّها قصّةٌ مؤثّرة من أبدع كتابات جوزيه ماورو الّتي قلّما نجد لها نظيرًا من حيث فتنة القرّاء بها واهتمام النقّاد بطرافتها الفنيّة لأنّها، بكلّ بساطة، تمسّ المشترك الإنسانيّ: الحُبّ والحلم.

عبد الجليل العربي

ISBN: 978-9938-74-030-1
9 789938 740301